إيهاب عبدالعزيز

الإســلام

وحلم التطلع البشري

مراجعات على أنظمة الإعتقاد والأخلاق

واستشرافنا للمستقبل

منشورات النيل

THE NILE EDITIONS

ISLAMIC STUDIES الدراسات الإسلامية

اسم الكتاب الإسلام وحلم التطلع البشري | **اسم الكاتب** إيهاب عبدالعزيز | **الناشر** منشورات النيل، الخرطوم | **سنة الإصدار** 2022 | **البريد الألكتروني** TheNileEditions@pm.me | جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي الكاتب وإجتهاده، وليست بالضرورة تمثل رأي الناشر.

المقدمة

في خضم البحثِ والرغبة المتوترة، سارت ركائب الحضارات البشرية قاطبة، تحملُ الحلم الإنساني المتطلع والشغوف، وتحاول فكّ شفرات عدة، عن مَن نحن، وطبيعةِ الوجود الإنساني، والرغبة في استطلاع ما وراء تلك الحُجُبِ الهائلة التي تحجب عنا الآفاق الكونية الكبرى، وتلك الخيوط الصغيرة التي تلتبس أمامنا لفهم دواخل النفس البشرية، وأعماقها البعيدة، المتوترةِ كذلك، وهي عالم آخر، منفرد، بعيدةٌ لُجَجه، يسترعي التوقفَ والنظر حسب منهجية القرآن الكريم، قال تعالى: **وفي أنفسكم أفلا تبصرون**[1]، ليصير سبر العالم النفساني الداخلي، وتطلعاته، وأحلامه، جزءاً أصيلا من مسيرة الإنسان نفسه، وفق قاعدة الفطرة التي قررتها أنظمة الإسلام الإعتقادية والأخلاقية، المنثورةِ عبر متون صحائف كتاب الله تبارك وتعالى، ومتون نقلياتِ أحاديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبالمقابل؛ تزدهر الأسئلة وتورق، تجاه ذلك العالم الأكبر، بسعاته الشاسعة، وأجرامه المذهلة، ومع الكشوفِ، والرصوداتِ الفلكية الحديثة، نعرف كم نحن صغارٌ جدا، في مساحاتٍ تتفوق على التصور العقلي البشري، وتتجلى مثل بحور هائلة من اللانهائية، ويصبح فيها الخيال، والإستدلال التصوراتي المتحرر، أقرب من صبغة المادة الجافة، التي كبلت العقل البشري؛ أو بعضه، في رحلته الدائبة للبحث والتنقيب، وفكِ الغموض، ومحاولةِ التجوال بين الأسرار، والغايات، وكتابةِ أحرفٍ تفسيرية على هامش كتاب الكون الأكبر، وبمثل ماقرر كتاب الحق جل وعلا طبيعة الشغف الإنساني، ورحلة التطلع البشري، حتى في سبرِ الغور النفساني؛ كما مر من الآية السابقة، جاءت الآيات القرآنية

[1] الذاريات 21.

محفزة لسبر الغور الكوني المشتبكِ أمام أسئلةٍ، وحيرةِ العقل البشري، قال تعالى: **قل انظروا ماذا في السماوات والأرض**[2]، بضمير الجمع، تنبيهاً قرآنياً جليلا، أصيلا، عظيما، على الوحِدة البشرية، في ضمير الخطاب، والحلم، والأمل، وعلى وحِدة الشغف، ومسبار التجليات البشرية الباحثِ عن غايةِ وجوده، وطبيعة الحراك البشري، والمصير الذي ينتظرنا في طبقات متعددة من المستقبل، قريبة، وبعيدة، ثم أبعد، ثم المطلق المستقبلي، في الدار الآخرة.

وعلى جناحيّ الدلالة، والتحليق، والتطلع، والرغبة في التجلي، والمشاركة الحميمية لأسئلتنا المقلقة، والمتقدة، كانت تلك الرحلة التي عبَر فيها البشر بعض تاريخهم، والدورة مستمرة، وتبدو في المستقبل ثمة ألوانٌ متتابعة، وأنساقٌ متباينة، لكنها دوما تتبع مسار الأجنحة الكبرى على مستوى النفسِ الإنسانية، أو على مستوى الكون الأكبر، محلقة نحو التطلع الدائب، والحلم الذي يزهر حينا، ويختفي حينا آخر، وفي كشف الستر عن غائيات وجودنا، ومصيرنا، ومآلنا.

---

[2] يونس 101.

الفصل الأول

الروح الإنسانية وأحلامنا المشتركة

عبر التاريخ، كانت التجربة البشرية ثرة جدا، مليئة بكل تلك القدرة الإنسانية على الخلق والإبتكار، وصياغة الأفكار الكبرى، التي قطعاً أثرت في رؤيتنا للعالم، وكانت أداة مصاحبة للحضارة في خضم المسعى الذي لايتوقف عن التجديد، ومحاولة حل الإشكال، والرغبة القوية في السيطرة، والتزود نحو المستقبل.

ويبدو التاريخ؛ برأيي، مرآة كبيرة، وصقيلة، ربما من الممكن سبرها للإستشفاف، والرغبة البشرية الدفينة للإنطلاق، ولايعني هذا قطعاً مثالية التجربة، فأحيانا؛ وليس بعجبٍ من القول، قد يكون ثراء التجربة بالأصل إنما هو من ألمها، وشدة قسوتها، بل وكثرةِ الخناجر التي توجهها للإنسان أثناء خطواته على هذا الكوكب.

وكانت المحاولات دائبة جدا، من تلك الأيام الأولى، من المدن الزراعية على وادي الرافدين، وفي مصر، ثم في كريت عبوراً إلى اليونان، ثم روما، وهناك تقعُ على الهند، والصين، بل وحتى أماكن مبعثرة في العالم؛ قد لا تجدُ الكثيرَ من الرصد التاريخي والبحثي، لكن عند التأمل، ليست الروح الإنسانية إلا واحدة في حلمها، وتطلعها، وأشواقها، وربما يكون هذا المنبت الواحد، في الطبيعة البشرية، من ضمنِ المقصوداتِ في قوله تبارك وتعالى: **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة**[3]، ثم لتصبح كل تلك الرغبات، والوجهات البشرية والإنسانية، وحراكنا التاريخي والحضاري، تبعا لِوحدة الأصل الذي يجمع الإنسانية ككل، وهذا من لطائف وعظمة القرآن الكريم، وفيه

---

[3] النساء 1.

الإشارة الدقيقة إلى التوحد الحضاري، والتماسك الإنساني، والإتساق البشري، الذي يجمع البشر كلهم، رغم الإختلاف بينهم، ذلك الإختلاف الذي جعله جلّ وعلا آية من آياته، الدالة على الحكمة وعمقِ الخلق، قال تعالى: **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالِمين**[4]، وبالرغم من الإختلاف الثقافي، والحضاري، والفكري، ومايتبع ذلك من إختلاف الأنماط العديدة لأبنية المجتمعات الإنسانية، لكنها في آخر الأمر، ووفق تقرير القرآن الكريم، تظلُ تلك النفس الإنسانية الواحدة، الوجودَ البشري الواحد، والأحلام البشرية الواحدة.

وعبر نسقنا التاريخي؛ كان هذا واضحا جدا، فتمازج الحضارات القديمة في حوض البحر المتوسط؛ على سبيل المثال، كان فيه شيء من الإلتفاف حول تلك الأنظمة العليا من الاتفاقِ البشري، على الرغم من الحروب والتنافس العسكري، لكن انتقال الأفكار والمعطيات التفسيرية للعالم ما بين الأسكندرية، واليونان، وشواطيء الشام، وروما، وآسيا الصغرى، كان في حالة تدفق لاينتهي، فرغم تنافسنا العسكري، والإقتصادي، كان البحث عن القيم العليا واحدا، ففي إيطاليا، بعد أن ضاق الناس بالشكِ بالآلهة المزعومة، وجدت الأفكار والفلسفات المستوردة رواجا ضخما، بعد أن جُلبت من اليونان، وسوريا، وغيرها من ثقافات البحر المتوسط حينها، لأن النفس الواحدة؛ آلامها واحدة، وكذلك قلقها، ثم كذلك ديدنها في البحث والتقصي.

من هنا؛ تأتي الإشارة العالمية في دعوة الإسلام، تأسيسا على وحدةِ النوع الإنساني، ووحدةِ الأحلام، والآمال، والمخاوف، والإنكسارات البشرية عند أطرافِ الحياة ومسيرنا على هذا الكوكب، قال تعالى: **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**[5]، وقال تعالى:

---

[4] الروم 22.

[5] الأعراف 158.

وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا[6]، والنبي صلوات ربي وسلامه عليه يقول: كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس عامة[7].

تلك الوِحدة الرائعة، والمدهشة حقا، هي من الأنظمة الحضارية المتماسكة، القوية اللُحمة، العتيدة البنيان في دين الإسلام، حيث البشر كلهم واحد، متساوون، ولايقع التفاضل على أي نمط من أنماط التفاضل الذي قد يسبق إلى الذهن، أو يحاول العقل أن يخلفه، تبعا لأي تأثير ثقافي سلبي وغير متقبل، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: لافضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى[8]، وجهُ التفاضلِ الوحيد هو القيمة المتقدمة فيما يحققه الإنسان على مضمار العقيدة السليمة الصافية، المتمثلة في التوحيد النزيه، البسيط، والفطري.

وبالطبع، لايعني هذا أن الإسلام يتغاضى عن طبيعة الإختلاف البشري في أنظمة الحضارة الإنسانية وتفريعاتها، لأن الإختلاف نفسه آيةٌ من آيات الله تعالى في خلقه، لما فيه من الحكمة، والتنوع، والإثراء الحضاري، والمعلوماتي، والقيمي، والاكتشاف كذلك، لأن الآخر يكون مثلَ المرآة التي نستلهم منها التجربة الثرة والمدهشة، ففي الحديث النبوي الشريف: المؤمن مرآة المؤمن[9].

لكن، هذا الإختلاف مشمولٌ ضمن الدائرةِ الإنسانية الأكبر، التي تحفز التعاون، والإتصال، وبناء الأنماط والأنظمة الفعالة للمجتمع الإنساني بأسره، قال تعالى: **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله**

---

[6] سبأ 28.

[7] البخاري، الصحيح 332، عن جابر.

[8] البيهقي، شعب الإيمان 4921، عن جابر.

[9] أبو داود، السنن 4335، عن أبي هريرة.

اتقاكم إن الله عليم خبير[10]، فمع الإقرار بالتنوع البشري، الخلاق، والمبدِع، لكنه تنوعٌ ضمن وحدتنا الإنسانية الكبرى، الدافئة، الحالمةِ بنفس الأحلامِ، ونفسِ الآمال.

[10] الحجرات 13.

الفصل الثاني

شغفنا للمعرفة ورغبتنا في السبر والإكتشاف

دائما ما تكون محاولة السؤال والإستقصاء، هي أول الخطوات التي تصاحب وجودنا دوما، عبر كل الحضارات والأنظمةِ البشرية في التاريخ، وإلى الآن، وحتى المستقبل، وفق تلك الوِحدة الإنسانية، الكلية، الكونية، الشاملة، والحميمة بالطبع، التي أرشدتنا إليها آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، وهو يقول على النمط الإستدلالي الآنف: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد[11].

وطبيعة التساؤل مصاحبة دوما للوجود البشري، ويمكننا التعميم بارتياح أن هذه هي خاصيتنا الفريدة، والمنطلِقة، بصورة لاتقبل التوقف بالطبع، مثل خاصية الوحدة الإنسانية في وجودها المشترك، التي جعلها الإسلام كما مر، أصلا إنسانيا وحضاريا، يكرس بيننا الرغبة في التواصل، والإرتقاء المعرفي والعلمي، والتمازج الثقافي المثمر، رغم أن قانون الصيرورة التاريخي على الأرض، يقترب بنا من الإحتكاك، والتنافس، والرغبة في السيطرة، لكن، وفي آخر الأمر، ستبقى الوِحدة البشرية هي الدائرة الأشمل، والمصير الإنساني المشترك، قطعا.

وفي الحقيقة، لاتنقطع طبيعةُ التساؤلِ وشغف المعرفة، والرغبة في الإقتراب من الأسئلة الكبرى، ولاتنفك، عن طبيعة وحدتنا البشرية، وتميزها، وتوقها إلى الإحاطة بحقائق هذا الكون الهائلِ والمدهش، والتحرقِ لمعرفة كيفَ، ولماذا، وإلى أين؟

---

[11] أبو نعيم، حلية الأولياء 3472، عن جابر.

فمع الصباح تأتي الشمس، وتبدأ دورة الحياة اليومية، ينطلق الزارع إلى زرعه، والعامل إلى عمله، والطالب إلى مدرسته، لم تُخلِف الشمس وعدها يوما، ولم نكف نحن أيضا عن الإستمتاع بلونها الذهبي، ومشهدِ الشروق وقت الفجر من وراء جبالٍ عالية، وهائلة، وموحية؛ من السحب، مثل ساعة كونية ضخمة تضبط مسار الحِراك البشري، على كافة مستوياته الحضارية، وفي أثناء هذا المسار لانكف نحن أيضا عن التفكر، ومحاولة الرصدِ والتأمل، لما كان الشغف البشري واحداً في العقولِ، والمشاعرِ، وفق التفاعل الآني مع حِراك الكون حولنا.

ثم يأتي الليل، تلمعُ النجوم، وينفرد البدرِ في السماء بالضياء الشاعري المدهش، مكونا تلك الحلقة التي لاتتوقف عن الدوران؛ من رغباتنا ومسعانا نحو المعرفة، وفق خصيصةٍ إستطلاعية، مضمخة بالشغف وحب الإكتشاف، والإيمان التام أننا نريد أن نعرف ماوراء تلك الحدودِ البعيدة، من الكون المذهل.

وعبر التاريخ البشري، كان تلك الرغبة محركا أساسيا للفعل الإنساني على الأرض، سواء على مستوى الثقافة، أو الإعتقاد، أو أبنية الأخلاق، أو المنظومات التشريعية؛ التي كانت تحاول ضبط مسار المجتمع، وتصحيح السلوكِ، والأفعالِ، وردود الأفعالِ، كان ذلك التجلي يدفعنا دوما للسير، لمعرفة الأبعاد الأخرى؛ لحياتنا ولوجودنا.

والقرآن الكريم، يعترف بذلك الشغف البشري للتطلع نحو الأسئلة الجوهرية، وتتعامل معه آياته الكريمة بدقةٍ وحساسية عالية، ملهمة لنا إلى المزيد من الكشف والسبر، بل والتحرك وفق منهج الملاحظةِ والرصد، قال تعالى: **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير**[12]، ولو تأملت الآية الكريمة لوجدها تدور على محورين؛ الأول يسوق إلى الثاني.

[12] العنكبوت 20.

فأما المحور الأول، فهو الحث على التفكر، والتدقيق في صنع السماوات والأرض، ذلك التفكير والتدقيق، العقلي والشعوري، الذي هو جزء لايتجزء من الطبيعة البشرية المتطلعة، الراغبة في الإقتراب إلى المزيد من أسرار الكون، وبحاره التي لاتنتهي، حيث كلما تفكر الإنسان في هذا الخلق الهائل، واللامتناهي، من عجائب الطبيعة والكون، إكتشف أن هناك الكثير دائما، مما هو وراء القدرة والإدراكِ العقلي البشري، ليقفَ على تلك الحافة من الدهشة، والإعجاب، والإقتراب من أفياءِ اليقينِ والإيمان.

وفي الحقيقة، وعبر رصد مسيرة الحضارة البشرية، كان الدوران حول ذلك المحور الأول من الآية الكريمة، لايكاد يتوقف أبدا، والتهبَ الدافع المتقد طوال تاريخ الحضارات الإنسانية، نحو فهمِ أصلِ الكون، وحقيقته، وطبيعة الوجود البشري فيه، وربما لم يكن هناك سؤال مفرد آخر، قد ألهم خيال أسلافنا القدامى، وكذلك أبحاث علماء الكون المعاصرين، عبر مختلفِ الثقافات والعصور، مثل ذلك السؤال المتحرق لمعرفة حقيقةِ المصير، والغايةِ البشرية، وبدا أنه هناك في الأعماق، كانت تكمن رغبة جماعية عارمة، لتفسير سبب وجودنا في هذا الكون، الواسع، والمهيب، والرامي دائما، بسهامٍ متتالية من الأسئلة المشتبكة.

ذلك هو المحور الأول من الآية القرآنية الكريمة، الذي يحث، وبضمير الجمع، نحو التفتيش عن أسرار هذا العالم، والسيرِ، والتنقيبِ في أرجائه، وبحاره، وسهوله، والإقتراب من الأزهار، والأوراقِ في الخريفِ، وفي الربيع، وتلك العوالم الساكنة من الحشرات والنمل، أو تلك الطيور المغردة في الفضاء سعيدة بحريتها وجمال الوجود، حتى يصل الإنسان بعد كل هذه الرحلةِ الطويلة والممتعة، إلى يقين تام، وإيمان به تبارك تعالى، وهذه ركيزة حضارية مهمة في البناء الإنساني والوجودي الذي يطرحه القرآن الكريم، ثم تطرحها سنة نبينا صلوات الله وسلامه عليه، حيث قرأ الآيات التالية: **إن في خلق**

السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار[13]، ثم قال: ويلٌ لمن قرأها، ولم يتفكر فيها[14]، وهو المنهاج العقائدي الصافي الذي سار عليه الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، حيث كانوا يؤكدون أن نور الإيمان، ومقتضاه، وينبوعه، يأتي من التفكر[15]، وهذا هو المحور الثاني الذي تسوق إليه الآية الكريمة السابقة؛ وهو أن يقود التفكر والنظر إلى الإيمان به جل وعلا، وبلقائه، وباليوم الآخر، لما لم يكن خلق الكون عبثا، أو صدفة عمياء تخبط في عدم.

---

[13] آل عمران 190-191.

[14] ابن حبان، الصحيح 622، عن عائشة.

[15] السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور 2\195، دار الكتب العلمية 2015.

الفصل الثالث

الإطلاقات الكونية وحدود العقل

تقدم في الفصل الثاني، أن الآية الكريمة السابقة من سورة العنكبوت، ومثلها كثير ضمن سطورِ الكتاب العزيز، تحوي محورين هامين، ضمن البناء الكلي العقدي، الذي يحيط ويوجّه منظومة الحضارةِ الإنسانية في غاياتها، وحقائقها، وسيرها، على نورٍ ودفع إيجابي ومثمر.

المحور الأول هو الحث على التفكر في آياتِ الله تعالى في خلقه، مستجلبين الأدلةَ والبراهين على ما يتصف به من الجمال، والجلال، والقدرة، والإحاطة، والعلم، وغيرها من صفاتهِ العظمى، وأسمائه الحسنى، المنثورة عبر دلائل الكتاب العزيز، والسنة النبوية.

وربما هذا بعضٌ من معاني حديث النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه يوم أن قال: إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة[16].

هذا، والتفكر، والنظر، في جنباتِ السماواتِ والأرض، على ماهو محور الآية الكريمة الآنفةِ الأول، يصل بالإنسان إلى سبرِ مافي وسعه من صفاتِ وأسماء الجمالِ، والجلال، والقدرة، والعظمة، التي يتصف بها ربنا جل وعلا، لكن، حتى بعد ذلك السبرِ، والتعقبِ، والنظرِ، تظل التجربة البشرية قطعاً قاصرة، فمن ثمّ جاء في الحديث: أو استأثرتَ بهِ في علم الغيب عندك[17]، والسياق النبوي الكريم جاء في معرض أقسامِ الأسماء الحسنى، ومنها ماهو في جنابِ الغيب الإلهي، وفق الإيراد النبوي الآنف، ومن ثم اتفق

---

[16] البخاري، الصحيح 2611، عن أبي هريرة.

[17] ابن حبان، الصحيح 977، عن ابن مسعود.

العلماء على أن حديث أبا هريرة رضي الله عنه السابق، ليس فيه حصرٌ لأسمائه سبحانه وتعالى[18]، والسبب بسيط وبدهي؛ وهو أن الوسع العقلي البشري؛ محدودٌ بحدوده، ولايمكن لعاقل ما أن يزعم الإحاطة المطلقة للعقلِ البشري؛ لمقتضياتِ الكون ودلائله، أو لفحوى معطيات منظوماتِ الوجود الممتدة، والكبرى، وإلا كان خارج سياق العقلانية قطعا، ونحن اليوم نعرف؛ من جهة المرصود المعلوماتي الكوني، أن بنية الكون ليست كما نعتقد، إذ أن على الأقل 90 بالمائة من الكون يتركب من مادة شكلها، وتركيبها، مجهول لنا[19]، وبالكاد لايمر شهر إلا ونكتشف جانبا جديداً، أو غير متوقع للكون، وكلما اقتربنا من الأسئلة الجوهرية لوجودنا، وشغفنا المتسائل، تزداد نسبة ما يفصح عنه الكون من أسراره، لنضطر إلى التسليم بحدودِ، وقصورِ، القدرةِ العقلية البشرية، في التمييز التفسيري العميق للوجود، ومنظوماته الممتدة الهائلة، وإذا كان هذا فيما يتعلق بوسعنا المعلوماتيّ المحدودِ لتحليلِ معطى؛ والإستجابةِ لمردودِ الرصدِ الكوني حولنا، في جناب المخلوقات، فهو؛ من جهة الإستدلالِ الأعلى، أقل من أن يحيط بحقيقةِ، وماهيةِ، الخالق جل وعلا، وصفاته وأسمائه الحسنى، فمن ثَمّ؛ جاءت الفحوى النبوية الشريفة، في حديث ابن مسعود رضي الله عنه السابق.

هذا، ويقرر القرآن الكريم هذه الحدود العقلية بوضوح تام، يقول تعالى: **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**[20]، وقال سبحانه: **ويخلق مالا تعلمون**[21]، وقال عزوجل: **بل كذبوا بما لم**

---

[18] النووي، شرح صحيح مسلم 5\9، دار الكتب العلمية 2017.

[19] روبيرت شيلدريك، إطلاق سراح العلم صـ71، دار دوِّن 2020. وأحمد فؤاد، رؤى إسلامية في فلسفة العلم والتنمية الحضارية صـ244، روابط للنشر 2018. وفريد سباير، التاريخ الكبير ومستقبل البشرية صـ72، دار التنوير 2015.

[20] الإسراء 85.

[21] النحل 8.

يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله[22]، وقال تبارك وتقدس: **ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء**[23].

ولايعني هذا قطعا وضع العقل ضمن حدودٍ تقيده، أو منظومة فكريةٍ تكبل عليه، أو تسعى لربطه في ساحة ضيقةٍ من الرِقّ الإستدلالي المرذول؛ كلا، فمواد العقل، والنظر، والتفكر، والتدبر، وسواها، كثيرة جدا في كتاب الحق جل وعلا، لكن؛ وكما مر من آنف البحث، فإن الكون نفسه يفرض حدوده على العقل البشري، ليصير الإقرار بهذه الحدود الوجوديةِ والكونية، منهاجا رشيدا في الإستدلال العقلي، ومن هاهنا تأتي المنهجية الفريدة للقرآن الكريم، في الإرتقاء والإعتداد بإطلاق العقل البشري، وإمكاناته، وفي ذات الوقت؛ كما مر من الآيات الكريمات السابقات، في التنبيه لحدودِ، وقصورِ، مدى هذا الإطلاق، والإمكان، تبعا لطبيعة المعطى المعلوماتيّ الكوني نفسه، ثم نحو الأعلى، تبعا لطبيعةِ، وحقيقةِ، وماهيةِ، الخالق تبارك وتقدس.

فآية سورة العنكبوت السابقة؛ وغيرها كثير في سطورِ الكتاب العزيز؛ وفي محورها الأول، جاءت محفزة للشغفِ البشري في المعرفة والإكتشاف، وهي تلك الروح التي سارت عليها المسيرة الحضارية للبشر ككل، فعبر كل تاريخ الحضارة، كان تلك الشعلة دائمةَ التوقد، وانتشر المعلمون المشاؤون كما في اليونان القديمة، يجادلون ويتحاورون، وتفاوت الناس على درجات عدة؛ من التوحيد المرتبك، والشرك المزجج بتماثيل الآلهة، أو الإلحاد الموضوعي لا المطلق؛ حسب قراءة الكاتب، إذ هو إلحادٌ تبعا للبيئة الوثنية الصنمية حوله.

---

[22] يونس 39.

[23] البقرة 255.

وعلى خطنا الحضاري الآنف؛ أرسل المصريون القدماء بعثات إستكشافية تجوب البحار، وانطلق الفينيقيون عبر المتوسط ليصلوا إلى قرطاج، وحتى الجزر البريطانية، وكانت جزائر رودس وصقلية وغيرها، مراكز للتجارة، والفلسفة، الباحثة حسب أدواتها المتاحة، وكان انتشار الأفكار مثل انتشار السلع، وتنوعت أشكال الآلهة التي يتبادلها الناس مع الحركة التجارية والفكرية النشطة للشغف البشري نحو الإستطلاع والبحث، بل يمكن القول أن الدوافع المعرفية أثناء الإحتكاك الحضاري، كانت دوما حاضرة، كما في حروب الإسكندر، ثم اهتمام البطالمة خلفائه من بعده بالتوسيع العلمي والمعرفي الدائم، لعاصمة المتوسطِ وقتها؛ الأسكندرية، حتى صارت مكتبتها وجهة حضارية باذخة.

وكان البحث عن نقطة دقيقة، خاصة، ومتحررة، موجودٌ دائما، فانتشرت عبادة ديونيسيس الإله الذي قام من موته؛ واعداً البشر بالخلاصِ والسعادة، على مساحاتٍ جغرافية واسعة، وصلت إلى روما في ذِروة مجدها وسيطرتها العسكرية فحسب، لا الثقافية أو الفكرية، وهذه نقطة دقيقة، ودلالة واضحة من مسيرتنا الحضارية، حول بحثنا الدائب، القلق، والمتوهج، لما كانتِ الروحُ التي تشملنا واحدة، في تطلعها وخوفها، كما مر في الفصل الأول من جماليةِ القرآن الكريم، في هذه الجزئيةِ الدقيقة، والحساسة، والحميمةِ، والرائعة كذلك.

وغاية المقصود؛ إن المحور الأول من الآية الكريمةِ من سورة العنكبوت، وبحضه على النظرِ، والسيرِ في الأرض للمعرفة والتدبر، والتوصل إلى ماوراء هذه الظواهر الكونية الخلابة، يصف، ويقرر، تلك الحالة البشرية المتطلعة للمعرفة، لما كانت هي نتاجٌ لوحدتنا الإنسانية نفسها، على ماورد في الفصل الأول، وكذلك هي ضمن إطار إنساني قوي، جليل، سابقِ حتى للمفردة الحضارية البشرية، يضعه القرآن الكريم ضمن أبنيته الحضارية المتينة، باعتباره أداة قياسية للبشر جميعا، في أحلامهم، وتطلعاتهم، وآمالهم، ونظراتهم

المتقلبة بين زرقة السماء، وفجاج الأرض، قال تعالى: **فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله**[24]، والفطرة هي الطبيعة الإنسانية السوية، المتهيئة لقبول التوحيد[25]، فبرغم كل القلق الذي ينتابنا، وتوجسنا الذي لايتوقف، عبر حوافّ الحياة المضطربة، لكن تبقى تلك البؤرة المتقدة، المنيرة، في ضمير البشرية الواحِدة، نقطة مزهرة، وجميلة، ولاتتوقف أبدا عن النبضِ، وإرسال رسائل متطلعة، ولامنتهية.

---

[24] الروم 30.

[25] حكمت فياض، الفطرة في الإسلام صـ21، دار الكتب العلمية 2008. والألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 4\118، دار الكتب العلمية 2014.

الفصل الرابع

الأسطورة ودروب التفسير والتوجس

تأسيسا على الفصل الثالث، فالرغبة في سبر حقيقةِ العالم، فطرةٌ بشرية حقيقية، متطلعة، مغروسة في الكائنِ البشري، عبر مسيرة الحضارة البشرية، وتطلعها المنفرد، الراغب دوما في كشف المزيد من أسرار وجوده، وغايةِ عمرانه لهذا الكوكب.

وتأتي آيات القرآن الكريم، المصدر الحضاري الأول لمنظومة الإسلام الخاصة أو العامة، تأتي آياته تحف ذلك السياق الأول، أو المحور الأول، كما مضى من الآيات الكريمات من سورة العنكبوت، تدور حول المحور السابق بمزيدٍ من التوضيح والفهم، في غايات النظر والتدبر، في آياتِ الله، في السماء والأرض.

ونحو سبيل الإيمان به جل وعلا، بعد التفكر في خلقه وآيات كونه، ثمة إشارات قرآنية في الطريق إلى هذه الغاية العظمى، قال تعالى: **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون**[26]، وقال تعالى: **وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون**[27].

وهذه موجهات ذكية أثناء هذا المحور الأول، محور الزناد والتحفيز نحو فك شفراتِ السموات والأرض، حسب الإمكان البشري، فربما تنزلق الأفهام والعقول، نحو الفهم الخاطيء لطبيعة الكون والعالم، ولحياتنا، ولوجودنا، ولغاية الأشياء، وحركة كل هذه المنظوماتِ المدهشة من المخلوقات.

---

[26] المؤمنون 115.

[27] الجاثية 22.

يعلمنا القرآن الكريم، كما سبق من الآية الآنفة في سورة المؤمنون، أن الوجود ليس عبثا، وأن الحياة الإنسانية ليست خبط عشواء في مسيرة هذا الكون الأكبر، وأن للحياة البشرية، قيمتها، وسموها، وعلوها، ورفعتها، المربوطة حقا، بحقيقتها، وغائيتها.

وعبر مسيرة التطلع البشري، ومنظومة الحضارة الإنسانية المستمرة، وإلى عصرنا هذا، بالطبع كانت هناك تأويلات عدة لوجودنا، وللكون، ولطبيعة حركة العالم ومنظومات جريانِ الموجودات فيه، ومن عمق التطلع البشري، الذي يعترف به القرآن الكريم دافعا ومسوغا للإيمان بالله تبارك وتعالى، كان هناك دوما ثمة خلطاً، وخطئاً في تفسير الوجود وحقائقه، تلك الحركة الحضارية، والتطلع البشري، الذي يدور كله حول مقتضى المحور الأول، من الآيات الكريمة لسورة العنكبوت الآنفة.

ومع سريان نار التفكر عبر تاريخ الحضارة، برزت الأفكار والأطروحات، من الفلاسفة والمفكرين، والكهنة، والزهاد، وغيرهم من شرائح المجتمع البشري التي تحاول فهم وضبط مفهوم وجود الإنسان في هذا الكون، ولم تكن الرحلة سهلة بالطبع، وربما عبر قرون وقرون تتكون فكرة واحدة، أو لنقل تبدأ في النضوج عبر سير الحضارة الحثيث والمتفكر، وتشير الدراسات الإنسانية المعاصرة إلى أن حتى بعض القبائل المعزولة في أركان قصيةٍ في أفريقيا أو أستراليا، كانت دائمة التفكرِ ومحاولةَ الحلِ للغزِ وجودها وحياتها.

وربما في تلك الأحوال المضطربة تنشأ الأساطير، التي تحاول تفسير وجود العالم بطرقٍ شتى، كما في أساطير شرق المتوسط مثلا، أو أساطير آسيا البعيدة، أو أساطير حضارات الإنكاس والمايا في أمريكا الجنوبية، لينتج في تراث البشرية هذا الكم الهائل من الموروث التأويلي والتفسيري لحركة الكون، ولوجودنا، ولمبدأ الخلقِ وحقيقته.

وفي الحقيقة، هذه الأساطير، ليست إلا الصورة الحقيقية للقلق البشري الذي لايريد أن يستجيب للراحة أبدا، لينطلق العقلُ والخيال والمشاعر، نحو فضاءات السماء والأرض في

محاولة للفهم، والسبر، والحفر، وفي ميزان مفاهيم القرآن الكريم، المتقاطعة مع الشغفِ البشري المتطلع، ومسيرة الحضارة في الكشف عن أنظمتها العقدية والوجودية، تصبح تلك الأساطير ليست إلا محاولاتٍ للتأويل بلا علم، وهنا ينفصل الخط القرآني، عن الخط العام للحضارة البشرية، ليعطي؛ ببساطة، غائية الوجود، وهدف حياتنا، وعالمنا؛ القيمةَ الأسمى، والعليا.

لأن الأساطير، كمثالٍ لسعي الحضارة للتفسير والفهم، منفصمة عن المجرى التوحيدي الحقيقي، الذي هو أصل القرآن الكريم الأكبر والعظيم، قال تعالى: **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**[28]، وفي أساطير الحضارة البشرية نجد المنحى التشبيهي، والإسقاطي؛ واضحا، حيث الآلهة المزعومة التي خلقت الكون ليست إلا انعكاساً للكائن البشري، فهي تحزن، وتقيم علاقات حميمة، وهي منظومات كثيرة جدا، لدرجة أن كل حركة في الطبيعة، وكل شعور مجرد، له إله يختص به، كما ترى في أديان الحضارة الرومانية في أوائلها.

والمقصود؛ أن التصور الأساطيري للكون، وإن كان من نتائج التفكر البشري في العالم، ومحاولة الفهمِ والتفسير، مما هو في أصل التفكر والتدبر مبدأ قرآني جليل؛ يتقاطع مع الشغف البشري العام لمعرفة مصيرنا، ومآل وجودنا في هذا العالم، وهذا من أبنية الإعتقاد القرآنية، العامة والأصيلة، التي يطرحها القرآن الكريم، لعموم المسير البشري المتطلع للمعرفة، لكن داخل هذا البناء العام، يأتي البناء الخاص لرؤية القرآن الكريم، وهي أن للعالم غاية وهدفا، وخالقا واحد، جليلا، ورحيما.

[28] الرعد 16.

الفصل الخامس

لانهائية المنظومات وانقلابنا في التصور

ضمن ترسيخ بنيته الحضارية المتينة والخاصة، والتي في إطارها الأشمل تعم مشروع التطلع البشري بإطلاقه، يأتي المحور الثاني من آية سورة العنكبوت الآنفة؛ وهي أن التفكر في خلقِ السماوات والأرض، والنظر في آياتهما، لابد أن يقود؛ وفق المنهج القرآني للتفكير والإستدلال، نحو الإيمان بالله تعالى ومعرفته، وباليوم الآخر، الذي هو المحصلة الأخلاقية والعقدية لمنظومة الإسلام الإعتقادية الخاصة.

ولايسلك القرآن الكريم مسلكاً صعباً لتبيان حقيقة الإيمان بالخالق جل وعلا، وهي النتيجة التي يخلص لها المحور الثاني من الآية الكريمة، فطريقة القرآن في الإستدلال سهلة، وهي عطاء فطري، مرن، ومستمر، يقوم على الإشارة إلى المنظومات الكبرى في العالم حولنا، في السماء، والسحب، والمطر، وحركة البحار والأمواج، وطبيعة الفصول، وحركة العمران البشري الحضاري، والزراعي، والإقتصادي، ليصبح كل ذلك؛ في مصطلح القرآن الكريم، غاياتٍ عليا، ومقاصد للخلق، فثمة هدفاً وراء هذا العالم، وهذا الإتساق، والنظام، والغائية، وهي إشارات كبرى على هذا المحور القرآني الجليل، والذي ينفصم عن بعض الخط البشري للتطلع أثناء سير الحضارة؛ كما سلف في الفصل السابق، الخطُ الذي يحاول تفسير الوجودِ بالفروضِ الأساطيرية والملتبِسة للعالم، والتي هي بالطبع خارج دائرة العلم المعاصر الصحيح، وبالطبع خارج دائرة القواعد القرآنية المفِسرة للعالم، وللوجود، ولقصة حياتنا فيه.

وتبعاً لطيف واسعٍ، معتدٍ به، من المعطيات العلمية المعاصرة، وعلى كافة أصعدة العلوم المطروقة، ضمن المضمار البحثي البشري، فإن وجود الخالق، تدل عليه تنظيمات لانهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان نفسه على ظهر هذا الكوكب، الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، كل هذا المعطى، إنما هي غائية مُنفذة، محكمة، ودقيقة الموازين، من باريء الكون، تبارك وتقدس[29].

وتأتي إشارة القرآن الكريم إلى تلك المنظومات اللانهائية، الدالة عليه جلّ وعلا في قوله تعالى: **ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم**[30]، وقال تعالى: **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا**[31]، وهي منهجية قرآنية واضحة حول سعةِ الوجود، وحول تلك الآفاق التي لايمكن للعقل بلوغها، مما هي وراء الإدراك البشري، وكما سبق، فليس في هذا نقصٌ من الطبيعة الإبداعية للعقل البشري، بقدر ماهو منهج قرآني عملي لبيان طبيعة إدراك العقل البشري.

وكل آيات القرآن الكريم تدور حول غاية العالم، كهدفٍ أسمى للوجود، بحيث أن هذه المنظومات، كما مر تقريره، إنما هي مسخرة لغايات وأهداف عظيمة، ونبيلة، ومساقةٌ إلى الغرضِ المختصِ بها وفق التقديرِ، والغائيةِ الإلهية الكبرى، قال تعالى: **وسخر لكم مافي السماوات والأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**[32]، فربطت الآية الكريمة، بين المنظومات المبثوثة في الكون لخدمة أهدافها الكبرى، وبين فعل التفكر والنظر، ومثلها

---

[29] كريسي موريسون، العلم يدعو للإيمان ص25، دار وحي القلم 2013. وجون كلوفر، الله يتجلى في عصر العلم ص46، دار الثقافة 2019. وأنتوني فلو، هناك إله ص112، مركز براهين للأبحاث والدراسات 2017.

[30] لقمان 27.

[31] الكهف 109.

[32] الجاثية 13.

كثير في كتاب الله تعالى، ثم أن يقود ذلك التفكر في الطبيعة الغائيةِ لأنظمة السماوات والأرض، إلى الإيمان به جل وعلا.

وكما سلف، فهنا ينفصل القرآن الكريم، عن الخط البشري العام المتطلع والشغوفِ نحو السبرِ والإكتشاف لحقائق عالمنا، حيث يضطرب ميزان الفكر والعقل البشري طوال مسيرة الحضارة في كيفية التفسير والتأويل لمعطياتِ الوجود، بالطبع لايعني هذا إطلاقا عاما، فقد كانت هناك منحنيات في مسيرة التطلع البشري وصلت إلى وجود خالق جليل، ومدبر للكون، ومسخِر لأجرامه، ويمكن قراءة بعض المتون التاريخية الجميلة التي تعظم هذا الخالق العظيم، لما كان أصل الإيمان بالخالق فطرةً بشرية عميقة، كما ورد من كتاب الله جل وعلا في الفصل الثالث، وكما قال نبينا الكريم صلوات ربي وسلامه عليه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة[33].

لكن، وجود الخلل في التصورِ كان حاضرا، كما ترى في بعض نماذج فلاسفة البحر الإيجي، مثل هرقليطس الإفسوسي(540-480 ق.م)[34]، مثالاً عمومياً، حيث كان في فلسفته ثمة وجودا لنزعة توحيدية غامضة، وفي ذات الوقت، ثمة وجودا لخلل تصوراتي لطبيعة هذا التوحيد، وصلةِ الخالق بالعالم نفسه، وهي صلة غامضة كذلك، أو إنعزالية عدمية، كما في بعض النصوص الهندية القديمة، وحتى بعض النصوص الإيرانية القديمة كذلك، وفي الجملة، تظل في الفطرة الإنسانية تلك البؤرة الموحِدة الصافية، في طبيعة الروح البشرية، كما مر من حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، لكن هذه البؤرة المضيئة يغشاها دخان التصورات الخاطئة، والمنزع الأسطوري للفهم، ولتأويل حياتنا في هذا العالم، الجميل، والمدهش، والذي يحمل تجربة ثرة لوجودنا البشري.

---

[33] البخاري، الصحيح 1304، عن أبي هريرة.

[34] منير البعلبكي، معجم أعلام المورد ص473، دار العلم للملايين 1992.

الفصل السادس

التوحيدية وديمومة العطاء والتماسك

يبني القرآن الكريم إذن أنظمته الحضارية في الاعتقاد والتصور البشري؛ عن العالم، ووجودنا فيه، وغايةِ الكون، ومصيره؛ على مبدأ الإيمان بالخالق جلّ وعلا، وفق بداهة بسيطة في الإستدلال، كانت حتى أثناء رحلتنا في هذا العالم؛ ونحن نتطلع دوما إلى التعلق بأهداب الحقيقة، توجّه طبقات كثيرة من شرائح الحضارة الإنسانية، إلى هذا الخالق الجليل والعظيم.

ولم يكن الأمر بالطبع فيه الكثير مما هو غير عقلاني، أو غير مقبول، فرحلة الإعتقاد التوحيدي، عبر مسيرة البشر، كانت دائما حاضرة، وكانت في بعض الأحيان تظهر كحركة تصحيحية لطبيعة العبادات الوثنية القائمة، أو حتى نزعةِ تأليه البشر، كما ترى في بعض النصوص الرومانية القديمة، التي تعتبر أن الآلهة ليسوا إلا أبطالا تم تأليههم بواسطة شعوبهم، ومن هنا يصير الإختلال بين ماهو بشري وإلهي، وتتداخل الماهيات، وتلتبس الصورة الصحيحة عن الإله الحق الواحد، التي تبرز في الفطرةِ السليمة، والقرآنِ الكريم، ثم معطيات العلوم المعاصرة الحديثة؛ وهذه الأخيرة صارت كثيرة جدا، ولها شريحة معتبرة من العلماء والباحثين.

وربما تلك النزعة الخاطئة في تصور الإله والخالق، كانت تستخدم لفرض معطيات السياسة على الأرض، حيث ترى بعض المدونات الإغريقية القديمة؛ أن الدين الذي كان سائدا وقتها، وإن لم يكن العقل يستسيغه، أو يقبله، فهو مفيد لحفظ نظام الدولة، ولتمرير السياسات وسط المواطنين، وانتقلت هذه النزعة التبريرية للدين والعبادة إلى روما

القديمة كذلك، حيث أجاز مجلس الشيوخ وقتها الكثير من الأعياد والإحتفالات الدينية، ويبدو أن الأمر بمثابة تخدير للطبقاتِ الفقيرةِ والذابلة داخل روما وإيطاليا في ذلك الحين، ومحاولة الإستغلال للعاطفة الدينية، لينصرف المواطنون الأحرار، وهم قلة، لتكديس ثروات الإمبراطورية التي كانت تمزق ببطء.

ويمكن القول أن التقرير القرآني للتوحيد باعتباره نظاماً حضارياً، يحيط بالتوجه الحضاري والقيمي لدين الإسلام، يرمي أول ما يرمي إلى السعي لتحرير البشر من تبعات الأخطاء والتصورات التي وقعت فيها الحضارة عند الخلط المفاهيمي لحقيقة الإيمان بالخالق، واحدا، مدبرا، ولما لذلك من تداعيات كبرى على المجتمعات والأفراد.

وهذه التداعيات وفق المعطى الحضاري الإسلامي، تشمل الظلم الإجتماعي، وفساد السلطة الحاكمة، وخدمتها فقط لأصحاب الأموال والثروات الهائلة في المنظومة الحضارية السائدة، وثمة إشاراتٍ في تدويناتٍ ماركسية حول إستغلال الدين بالأصل من الطبقات الثرية أثناء مسيرة الحضارة، لتحقيق أهدافها التوسعية، في جمع وتكديس الثروات، وليصبح الفقراء والمعدمون في حالة بيات مفاهيمي وعقلي، وسط أرتال كثيرة من الأفكار والتصورات الأسطورية، التي تغذي المخيلة بأخبار وقصص الآلهة، التي تدعمها السلطة الحاكمة.

ولايبعد القول أن من أسباب تمزق الحضارات فشو النزعة المهيمنة لرجال رؤوس الأموال المرتبطين بالعقائد الدينية المضطربة، لهذا كانت الطبقات الثرية في اليونان القديمة تحارب نزعات التفكير الحر والإلحادي، الذي بدأ يظهر على السطح في أثينا وباقي حواضر العالم الهيليني وقتها، حيث بدأ الأفكار تتحرك، والعقول تحاول الفهم، وبدأت النفوس كذلك محاولاتها الدؤوبة للخروج من هذه القيود المرهقة على الروح الإنسانية، التي خلقها الله جلّ وعلا حرة، طليقة.

ويقص علينا القرآن الكريم، إحتكاكات الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، مع الطبقات الثرية النافذة في مجتمعاتهم التي ترفض التغيير، وتريد المحافظة على المنظومات الدينية السائدة في المجتمع، لتمرير أجندتها السياسية والإقتصادية، وفي زاوية بعيدة من دلالة القرآن الكريم، يمكن القول أن الإنكار لم يكن بسبب طبيعة الدعوة التوحيدية التي هي رسالة الإنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، لكن لأن الطبقات الغنية، رأت في طبيعة هذه الدعوة مايهدد مصالحها الفئوية الضيقة، فمن ثم كان الفقراء دوما هم أول أتباع الأنبياء.

تصبح دعوة القرآن الكريم حينها، لتفعيل التوحيد حقيقة حضارية مهمة، هي كذلك دعوة للتسامح والتعاضد بين البشر، وللمساواة في الحقوق والواجبات والهوية، وتفعيل المواطنية الأصيلة مبدءاً أساسياً لقيام الدول واستمرار عطائها، فروما في قمة مجدها بدأت بالتمزق، مع فشوِ الغبن، والشعور بالظلم من طبقات واسعة لشعوب الإمبراطورية، مما أدخل الدولة الرومانية في دهاليز مضطربة.

الفصل السابع

كرامة التوحيد الخالص ومرجعياتنا المضطربة

من التوحيد تنطلق الكثير من أنظمةِ الإسلام الحضارية، في الأخلاق والعبادات والمعاملات، ليصير التوحيد الخالص ضابطا حضاريا تاما لنظرة الإسلام لحركة العمران والتطور البشري، ولطبيعة تفسيره لحقائق العالم من حولنا، من جهات الأهداف والغايات، ودور الإنسان المنوط به في هذا العالم، وهي كلها أهداف كبرى ضمن المسير العام للحضارة البشرية، حيث كان السعي دائما نحو الفهم، والتحليل، لمعرفة موقع الإنسان وسط هذا العالم الضخم واللامتناهي من المخلوقات، والكينونات المعروفة لنا، أو غير المعروفة لنا كذلك، وهي تلك الدافعية التي كانت دائما؛ وكما سبق العرض في الفصول الفائتة، تحفز الحِراك البشري عبر تاريخنا، وحتى لحظتنا الراهنة المعاصرة، على مستويات الفِكر، والثقافة، والآداب، والعلوم، والفنون، والأنظمة العقائدية التفسيرية، والتي جنحت في طائفة كبيرة منها نحو التفسير الخاطيء، الأسطوري؛ للكون، مما ينافي العقل الرشيد الذي يعرف حدود الإمكان البشري، ويوقن بتلك الأعماق اللامطروقة من بحار المعارف الكبرى، المتجلية في جهلنا بالكثير من وسائط هذا العالم، وطبيعة العلاقات الكونية فيه، والمنظومات التي تحدد الحركة والأهداف والغايات.

ولا ينافي هذا؛ كما مر العرض، السبيل الأمثل للإستفادة من معطيات العقل البشري المبدِعة، لكن طبيعة المعلوماتِ المستقاةِ من الكون حولنا، وهي التي تقترب من حوافّ اللانهائية، تشكل التعريف الموضوعي، والحقيقي، للعقلِ الذي يطرحه القرآن الكريم، طالما

كان ما يُعطى من العلم التفسيريّ والتبييني؛ قليلا، إذا قيس بالإنفجارِ المعلوماتي الضخم للكونِ من حولنا.

فتجدد الكون على تلك الحيثية، أمارة أكيدة على تلك الحدود أمام العقل البشري، وحتى يكون العقل أكثر موضوعية، وواقعية، وعقلانية، عليه الإعتراف بحدوده، وقد أشار القرآن الكريم، وكما مضى من آيات سورة الكهف ثم سورة لقمان، إلى تلك البحار الكبرى من المعطياتِ الكونية، اللامتناهية، والتي لن يخرج منها العقل بكثير علم؛ مفسِراً أو مبيناً، وليس إلا قليلا، كما مر من آية سورة الإسراء، وهي كلها ضوابط كلية، تحقق طبيعة العقل، الذي يضعه القرآن الكريم في موضعهِ الصحيح، بلا غلوٍ أو تفريط.

وهذه هي الطبيعة المتوافقة مع العلم المعتبرِ عندي، من معطيات بحوثنا الفيزيائية المعاصرة، تلك البحوث الحديثة، المتزنة، التي تعترف بحدود العقل، وتوقن أن وراء هذا العالم الممتد، الفسيح الأرجاء، والزوايا الهائلة، ربا قديرا، صانعا عظيما، لاتخفى عليه خافية، وهو ذلك الإستدلال الحكيم والغائي، الذي أشارت إليه جملة من البحوث الترجيحية الدقيقة، وفق المعطياتِ الإحتمالية المرصودة، والأنساقِ المنظوماتية متعددةِ الأطياف، من تحليل المعطى المعلوماتي، للكونِ من حولنا، لتصل إلى الإعتراف الأكيد، بعظمة الخالق تبارك وتقدس، وحكمته، وجلاله، وجماله، وهي الخلاصة الكبرى، الدائمةُ الإتقاد، والتقنيةُ المتصلة الطَرق، الغائي، والتعليلي، من متون آيات الكتاب العزيز.

هذا، والخلطُ الأساطيري عبر مسيرة الحضارة، كان بسبب التأويل الخاطيء لطبيعة العالم ووجودنا فيه، وهذا عند طرفٍ من سير الحضارة البشرية، ورحلتنا الدائمة نحو التطلع والبحث؛ مع ذلك، هو أمارة، كما تقدم، على الشغف الهائل لدى الكائن البشري للمعرفة، والتحقق من هدف وجوده على هذا الكوكب، وهي حقيقة ماثلة في انتاجنا الحضاري البشري المتطلع دوما، نحو ماهو حميد، وجميل، وعظيم، مشكلا المصدر الأول للإنسانية

ووجودها، وقد يقترب الناس من التصور الصحيح أو يبتعدون حسب الجهد البشري، لكن بالمقابل، كان النَفَسُ التوحيديّ المرتبك قائما، نعم، تعتريه شوائب وأخلاط، لكنه يظل موجودا باعتباره الفطرة السليمة في الإنسان، على ماقرره القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهي خاصية لاتكاد تخطئها العين المطلعة على التجربة البشرية، ومسيرة الحضارات الإنسانية كلها، وتشير الكثير من الدراسات المعاصرة إلى هذا المشتركِ الحضاري الموحَد في ضمير الإنسانية كلها.

يبقى التوحيد حينها الإطار المطلق الذي يقوم عليه بناء الإسلام الحضاري الضخم، ليؤسس عليه شتى الفروع الأخرى، وليكون القاعدة الصلبة، لكافة أحكامه، ووجوده، ودعوته؛ وعبر التاريخ وحتى اليوم، كانت النزعة الوثنية أو الشركية تحطيما بينا لكرامة الإنسان، الذي أطلق القرآن الكريم فيه مفهوم الكرامة بعمومها، قال تعالى: **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا**[35]، وهذ الكرامة الإنسانية العظمى إنما هي حكم قرآني فريد، منهجي، كلي، يساوي البشر جميعهم، ويرتفع بالنفس الإنسانية إلى مصافّ نبعها الأكبر والأعظم، وليكون أي انحطاط لهذه الكرامة هو أول مايكون، رداً لهذا الحكم القرآني العظيم، وهو حكم، يجلي لنا بهاء القرآن الكريم، وإنسانية المبدأ، لعموم التكريم، وشموله لكل الأرواح الإنسانية السائرة على سطح هذا الكوكب، والتحذيرَ المبطن والشديد عن الأذى، والإهانة البشرية، والعرقية، والعنصرية، والإزدراء، وكل مايقدح في هذا التكريم الإلهي للبشر.

ولما كانت أول واجبات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هو الدعوة التوحيدية، كما هو منشور في الكتاب العزيز، وعبر صفحاته وآياته الكريمات، ولما كانت الكرامة الإنسانية قانونا إلهيا ثابتا مبجِلا لعموم البشر، ستكون بالطبع أول صور الكرامة هي معرفة التوحيد

[35] الإسراء 70.

الصافي، والنزيه، والنبيل، والذي يحرر الروح الإنسانية، والعقل، من ركام الإختلالات والتصورات، التي مرت بها في مسيرتها المتطلعة الوثابة؛ لطبيعة الشغف البشري، ومن ثم كان قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لاشريك، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير[36].

من ثم كانت اللبنة الأولى في بناء الإسلام الحضاري هي الإقرارُ بالتوحيدِ التام، والذي ليس إلا الروح الإنسانية المتحررة من شغبِ الأفكار، والفلسفات، والأخطاء في التصورات، والتي تشكل مع الوقت حاجزا كثيفا يغطي على الفطرة السليمة، والتي متى تحررت، كان بإمكانها معرفة الهدف الحقيقي لوجودها، ولغاية سيرها في هذا العالم، المستندِ إلى الكرامة الكبرى الإلهية التي قررها من خَلق الخلق، وبثهم في أرجاء عالمه؛ تبارك وتقدس، ولتصبح مرجعية التكريم إلهية لا أرضية.

وهذه نقطة دقيقة في مسيرةِ الحضارة، ورحلةِ التطلع البشري نحو خلاصه وتحرره، نعم شابتها أخطاء وخلل، لكن دوما كانت المحاولات المرجعية للبشرية تشير إلى السماء، وسواء كان هذا على سبيل الحق، أو محاولة لإسباغ القوة في الحكم نفسه، لكنها ظلت كذلك؛ عن الإطار العام البشري هنا يدور الحديث، من أقصى تاريخ شرق آسيا وصولا إلى الشرق الأوسط، ثم وصولا كذلك إلى التحديدات الأخلاقية والسلوكية والقانونية التي حاول الإغريق أو الرومان تصديرها بمرجعيات سماوية، أو إحاطتها بها، حتى لو كانت المرجعية أسطورية، أو وثنية.

والمقصود، أن الضمير البشري يحاول دوما وضع تلك المرجعية في أثناء خط السير، لتحدق بها كل تلك الأخطاء في الأبنية العقدية والتصوراتية، ولتأتي كلمة الإسلام

---

[36] الترمذي، السنن 3666، عن ابن عمرو.

فاصلة، ومذكِرة كذلك، بالبؤرة القوية من الضوء في أعماق كل البشر، التوحيد الخالص والصافي، منظومةً متنية الأركانِ، والأهداف.

الفصل الثامن

حكاية دافني ونهر الوجود الصافي والعذري

في الحديث النبوي، أنهم سئلوا النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ فقال: إيمانٌ بالله ورسوله[37]، وتأتي الكثير من نقليات السنة النبوية الشريفة على هذا المنحنى، الذي يجعل دائما عقيدة الإيمان بالله وحده، أساساً ومرقاة يرتفع بها الإنسان إلى مدارج عليا، وكبرى، من كرامته، والتحقيق الحقيقي لغاية وجوده، وسط صيرورة هذا الكون الأكبر، الذي لايكف عن الحركة، والتجدد، واقتراع سلاسل لاتكاد تتناهى عن الخلق، ليصبح ذلك التجدد نفسه، نوعاً من التحفيزِ للعقل والشعور البشري، نحو المزيد من إعادة النظرِ، والتفكيرِ، وبسط المزيد من الأحاسيس والمشاعر، تجاه الكون كله، لما كان الإنسان يقف أحيانا عن هذا الخُلُقِ القرآني الكريم، بسبب طبيعة الحياة، والجري الذي لاينقطع عن سبل الرزق، وما يكتنف حياة الإنسان نفسه من إضطراب، وأحوالٍ مختلفة، وهذا ربما من الأوجه التي تجعل القرآن الكريم يكرر الدعوة إلى التفكر والتدبر بصورة شبهِ دائمةٍ عبر آياته الكريمة، ليظل هذا الزناد دائم التوقد في العقلِ والأحاسيسِ البشرية.

ولربما تكون تلك الدهشة الدائمة، التي نقف بها أمام جمالِ الكون وجلاله؛ ربما تكون تلك الدهشة سائقا لنا للمزيد من التركيز والإستدلال، وصولا إلى قاعدة الإسلام الكبرى الحضارية؛ التوحيد النزيه الصافي، والذي هو في أصله؛ أقرب للفطرةِ البشرية السليمة، كما مر من حديث نبينا صلوات ربي وسلامه عليه، لكن أمام كثرة التحديات، وبعثرة

[37] البخاري، الصحيح 26، عن أبي هريرة.

المشاعر، واختلاط المفاهيم العقلية، قد يصل الإنسان، طالما ليس ثمة ضابطاً من أنوار القرآن الكريم، إلى طريق غير بيّنِ الملامح، وعجز تام أمام الطبيعة المتجددة للكون، معلوماتياً وحركياً، لهذا كان دور الأنبياء جميعهم عبر سير التاريخ الإنساني، هو تجديد تلك الفطرة السليمة، التي قد تتوارى في دهاليز الحياة المشتبكة، المغايرة لعمقنا البشري المتطلع والحالم نحو كماله وعلوه، بل إن المسألة قد تصبح أقرب إلى بديهة عقلية بسيطة، بلا تعب، أو مزيد إستدلال، أو محاولة تفصيل، أو تقعيد، قال تعالى: **أفي الله شك فاطر السماوات والأرض**[38].

وتلك التقريرية القرآنية ليست إلا التحقق العميق للمسعى البشري، وحلمنا بالتحرر من قيد ثقيل، ومزعج، مكبِّلٍ عن التعامل المرتفع، والسديد، والذكي، والعميق كذلك، مع الطبيعة البشرية، قال تعالى واصفا بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم أنه: **يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم**[39]، أغلال الواقع والتصورات، والخلل المفاهيمي، الذي يفتقد البوصلة الصواب، في كيفية التعامل مع أسئلتنا الوجودية الملحة.

من هنا، كان ذلك الخطاب النبوي العظيم، الذي يجعل الإيمان بالله جل وعلا، قمة العمل والمسعى البشري، والإيمان المقصود هنا بالطبع هو ماجاء على المنهج النبوي الكريم، وأنوار وحي الله تعالى إلى أنبيائه ورسله، تقريرا وتذكيرا للإنسان بحقيقة التوحيد الكبرى في هذا الكون، الذي تتجه وجهات علومنا الآنية البحثية، إلى الإقرار بإستحالة صياغة وحِدةٍ كاملة عنه للفهمِ، والتأويلِ، مع الإعتبارِ، عند من يعتد به عندي، وفق كلية القرآن الكريم في المعرفة والعقل، باتساق سلاسلِ الخلق، ووضوح المصمم الجليل، تبارك وتقدس.

---

[38] إبراهيم 10.

[39] الأعراف 157.

وربما حتى في أساطيرنا، على الجانب الآخر المضاد منها، كنا نتوق إلى هذا، أعني غاية وجودنا النبيلة، وهدف الحياة الإنسانية الأسمى، لما لم تكن عبثا، أو جمعا فوضويا لأشتاتِ مواد الوجود الممتد، ففي التدوينات الأسطورية الإغريقية، نجد حكاية دافني[40]، الفتاة العفيفة، البارعة الجمال، والمحاطة بإعجاب وحب كل من حولها، لكنها مع ذلك كانت تسمو إلى حقائق كبرى، ولم تجعل لهذا القيد البشري المادي، كما مر، أو الفكري، كما كان سائدا، أن يحدد رؤيتها للوجود، فكانت تسيح في الطبيعة الخضراء، وتقترب من الفراشاتِ، والأزهارِ، وتخاطب الأنهار السابحة في رقةِ الوجودِ المدهشة، لكن إلهاً أسطورياً حاول إغوائها، أبوللو، لكنها هربت وهربت، وراء سفوح الجبال، والطبيعة المدهشة، وجريان الأنهار، ورقرقةِ الورود والأزهار، رافضا إغراء أبوللو، الذي وجد تمثاله بعد ما يزيد عن ألفي عام، في عصرنا الحالي، غارقا قِبلَ السواحل الشامية، مغطى بأوحالِ البحر المتوسط.

برأيي، لايبعد القول أن ثمة رمزية في تلك التدوينة الإغريقية الأسطورية، فالنفس الصافية، والفطرة العذراء، وذلك الوجود النابض في دواخلنا بكل الجمال والرغبة في الإستكشاف، لايمكن أن يقبل أسطورة أو خللا مفاهيميا، أو منزعا عقليا ترفضه الفطرةُ السليمة، ومنهاجُ الأنبياءِ الكرامِ طوال التاريخ البشري، ليصبح التمرد البشري، حتى على التفسيرات التي نطرحها أثناء خط السير، واردا بقوة، مندفعاً برجاء كامل، تجاه نهر الوجود الصافي والمنير.

تأسيساً على سير البحث، يأتينا حديث النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، داعما قضية الحِراك البشري نحو أفضل العمل الذي يمكن أن يتحرك الإنسان نحوه في مسيرة هذا العالم، وليكون تتويجا لمعطيات القرآن الكريم التي تحث على التدبر والتفكير، في منظومات

---

[40] جيمس بالدوين، أقاصيص من الأساطير اليونانية ص94، دار العراب للدراسات والنشر 2011.

الكون الكبرى، وبذل الوسع في ملاحظة تفصيلاتها الغائية، المنضبطةِ والجميلة، ليكون مجرى نهر الإستنباط نحو معرفة الخالق جل وعلا، كريما، رحيما، عدلا، وعظيما، وفق بصمات الأسماء الحسنى المبسوطة في ثنايا خلقه، وليكون ذلك على قمة هرم أعمال الإنسان في رحلته على هذا الكوكب، الثري بالجمال، والدهشة، والروعة حقا.

الفصل التاسع

تربية الفرد أن يكون كائنا مفكرا

أحيانا، وربما في عصرنا خاصة، قد يكون من الصعب الحصول على تلك الأوقات الهادئة للتفكر والنظر، لو حاول الواحد منا أن يضع مثل هذا الخُلق بصورة مرتبة ومنظمة؛ الحياة اليوم تمتليء بعناصر الميديا التي تأخذ الكثير من وقتنا، وتشكل ربما أحيانا حاجز لامرئيا عن اكتشافِ تلك الأعماق التي فيها الكثير من الضوءِ والتحرر، والرغبة في السبرِ والبحث، مثل تلك الرمزية من حِكاية دافني الإيجية السابقة، تلك الروعة الهائلة نحو الإبحار إلى نهر الحقيقة، وتلك الحدائق الكبرى، والغابات الغناء؛ من ضروب المحاولاتِ للتحرر البشري، نحو حلم التطلع، والسمو، والدورانِ المستعلي حول نبل وجودنا، وقيمة الحياة أصالة.

من قديم؛ كانت الرغبات في الهدوء ملازمة للبشر، يهرب أقوام إلى أقاصي هضبة التبتِ الآسيوية، وتحاول بعض أفرعِ المذهبِ الجيني الهندي القديم، الغوص في الغاباتِ البعيدة، طلبا للبحث، والتأمل، وخلق جدار لطيف بيننا وبين ضجيج المدن، ومعطى المجتمع البشري، الذي ربما يسرقنا أثناء الحياة، عن الحقائق الكبرى للوجود، طبيعةِ غائية الكون، والنسقِ الحقيقي للحِراك الإنساني.

عبر العرض السابق في الفصول الآنفة؛ تبدو منهجية القرآن الكريم ثم سنة نبينا صلوات ربي وسلامه عليه؛ واضحة جلية، إذ الدافعية إلى التفكير تشكل جوهراً ثابتاً، قوياً، من معطيات القرآن والسنة، بل هي سمة ساطعة عبر النصوص الإسلامية، ليصبح الإسلام الحنيف دين التفكير حقا، والحث عليه، واستدامة النظر في متلازمات الإستدلال،

والعقل، والاحتمالات المطروحة لسلاسل منظوماتِ الكون حولنا، حتى أن الحث على التفكير، في فضاء الكتّاب العزيز لاتكاد ربما تخلو منه صفحة واحدة، إشارة أو تصريحا، في موجة قرآنية هائلةٍ ومتدفقة من الطَرقِ الدائم على النفس البشرية والإحساس الإنساني، لمراجعة أفكارها، ولايبعد هنا كذلك، أن سمة التكرار القرآني، للمباحث والدلالات، من جملة غاياتها هذه النقطة المحورية الدقيقة، لأن التفكير الحيادي، والموضوعي، الهادف والرشيد، دائم التقلاب لوجهات النظر، وإعادة التفكير كذلك في كل المسوغاتِ والدروب السابقة، ومحاولاتِ كشف أوجه الضعف أو أوجه القوة، لنسق التفكير، والإحتمال، والمعطيات العقلية قيد البحث، وصولا إلى هدف القرآن الأكبر، الذي يبني عليه لاحقا منظوماته التشريعية، والحضارية، واعتبارات التفاعل البشري والأخلاقي: الإيمان بالله وحده، تنزيها صافيا، فطريا، على ما مر من متتاليات البحث السابقة.

تلك الروح التي لاتزال ملازمة لنا دوما من القلق، والشعور المتطلع إلى ما هناك، مما يدركه العقل البشري، لكنه يعجز عن تحقيق ماهيته، عبر عنها الكاتب الآيرلندي، جيمس جويس، بقلمه الرشيق عبر إشارات التطلع الماورائي، والصعوباتِ التي تعتري مجرى العقلِ، مع شغفنا المتطلع إلى تمثل الوحدانية وروحها، مع الوخزِ الشديد من آلام جهلنا وضآلتنا، ومع شديدِ الإتزان الجمالي الذي نشعر به تجاه غائية الكون، وروحهِ المدهشة، يقول: ربيعٌ جامح. سحب مندفعة. آه أيتها الحياة! جدول غامض من المستنقاتِ الدوارة حيث تلتقي أشجار التفاح بزهورها الرقيقة! ليختم جويس بعبقِ تطلعٍ بشري دافيء، يردف قائلا: أيها الصانع القديم، فلتعضدني الآن، وإلى الأبد، بروح من عندك[41].

[41] جيمس جويس، صورة الفنان في شبابه ص286، دار الآداب 1986.

هي تلك الجذوة المتقدة فينا دائما. من ثمّ، يحرص القرآن الكريم على أن تظل جذوة التفكير دائمة الإشتعال والحرارة، مثل مدادٍ دائم التوهج يغذي نهراً مستمرَ التدفقِ من شعورنا المتطلع الوثاب، الذي، وعند كثيرين، قد يعرف الحقيقة، لكنه قد يحصل عليه التشويش جراء زحمة الحياة، تلك قطعاً هي الدافعية التي جعلت طوائف كثيرة عبر تاريخ الحضارات تحاول نيل قدرتها من العزلة، في خضم المسعى نحو تصفية التفكيرِ عن عوالق الحياة، التي قد تشغلنا عن تتبع ما هو أسمى.

وعَوداً على بدء، فليس القرآن الكريم دعوة للعزلة، بقدر ماهو تفاعل إيجابي وديناميكي مع الواقع، يحلله، ويفككه، ويندمج في كل إشكالياته، وحقائقه، وأطروحاته، ومنحنياته، وهنا يمكن القول أن القرآن الكريم ينفصل بخطه الخاص المتفرد، فمع كون تلك العزلة المبتعدة حاولت عبرها طوائف عدة من مسيرة التطلع البشري اتخاذها طريقة للمعرفةِ والسمو، مخلفين تعقيدات المجتمع البشري من ورائهم، لكن القرآن الكريم أداة تفاعلية بحتة مع الواقع، يقوِّمه، ويقوم بالطرح الإيجابي الإصلاحي على مرآة الواقع نفسها بلا مواربة، قال تعالى: **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**[42]، فهذه المنظومة من القيم الحضارية تقوم إنما عبر تفعيل الإندماج البشري، والتواصل الإنساني، مما هو ديدنٌ قرآني تام.

مع ذلك، يلفت القرآن الكريم، نظرنا إلى تلك اللحظات من الهدوء، خاصة وسط وسائط ميديائية كثيفة كما هو الحال في مثل عصرنا، مما هو السِمة المطلقة للعصر، قال تعالى: **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صِنوان وغير صِنوان يُسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأُكُل إن في ذلك لآيات لقوم**

[42] النحل 90.

يعقلون[43]، وهي تلك اللحظات الإنسانية الهادئة، بين لطفِ الطبيعةِ والكون، وآناقة الشجر والزهر والورد، والبساط الأخضر أو الذهبي الصحراوي، الذي يجلي العقل، والبصر، والقلب، نحو معرفة الخالق ومحبته، وصحيح الإيمان به؛ تبارك وتقدس.

لكن؛ في المطلق، تبقى الحالة القرآنية المتفردة، هي تربية الفرد على أن يكون كائنا مفكرا، وفي الحقيقة ومع الوقت، والتمرين، ودوام التدبر لآيات الكتاب العزيز، يصبح الإنسان شخصية تتجلى فيها أنماط التفكير المختلفة في كل لحظة، وثانية، ومنحى للزمن، وهو بناء قرآني يترسخ مع الوقت، بغض الطرفِ عن إمكانية الهدوء والعزلة أو لا، إذ الإنسان في أحيان كثيرة هو الذي يساير الحياة، ربما لا الحياة هي التي تسايره، فمن ثم برزت تقنية القرآن الكريم في الطَرقِ الدائم على العقل والشعور، ليتحول الفرد مع الوقت إلى كائن جمّ التفكير، عميق المعطى، متزنا بسلام داخلي رقيق وحلوٍ، باعتبار مقدمات التفكير المحَفَزِ عليها في القرآن، ثم باعتبار نتائجها الكبرى، العظيمةِ والجليلة.

[43] الرعد 4.

الفصل العاشر

القرآن الكريم ومنهجية التفكير والإستدلال

مر في الفصل السابق، كيف أن المنهج التربوي القرآني يصعد بالفرد إلى مراتب عليا، من الإنتباهِ والتيقظِ، والنظرِ التام في كل لحظة من مسيرة الإنسان على هذه الأرض إلى مافيها من الآيات، والدلائل الكثيرة، على سبل الوحدانية، وعظيم صنع الباري جل وعلا، وأن القرآن الكريم لا يتطلب عزلة أو محاولة وضع حاجزٍ ما بين الإنسان وواقعه، ليمارس عملية التفكير الإيجابي، وليكون في حالة تامة من كمال التوقد الذهني والعقلي، مما هو من باب الصحة العقلية الكاملة، التي تمكن المرء من صنع صحيح التصورات، عن كوننا ووجودنا فيه، طبيعة الغائيات، وأسباب العللِ والمعلولات.

وتظل بالطبع لحظات الهدوء فريدة، كما من مر آية سورة الرعد في الفصل السابق، لما توفر من تمام الرصد لمظاهر الطبيعة من حولنا، والإستنتاج الصحيح، حسب الممكن؛ وإنما كان حسب الممكن، لأن طبيعة المنظوماتِ الكونية، والوجودية، قد لايمكن الوصول فيها إلى إستنتاج نهائي قاطع؛ أعني ماهياتها الفيزيائية، ونسقها الحَرَكي والتفاعلي، حسبما تشير تقارير معتبرة، من دوائر الرصد الفيزيائي المعاصر[44]، وليس هذا بالطبع وكما مر في سابق البحث، إلا لسِعة هذه المنظومات الكونية التي تربط طبيعة الحياةِ، والكونِ، ووجودنا فيه، في علاقات لانهائيةٍ من الغاياتِ والمقاصد الكونية الكبرى، والصُغرى، والصُغريةِ كذلك، نحو تحقيق قيميةِ الحياة وسموها، وكرامة هذا الكائن البشري، لكن طبيعة الإحاطة بعلاقات هذه الأنظمة وقوانينها، هو فوق طاقة الإنسان ودوائر العقل

[44] جيمس جينز، الفيزياء والفلسفة صـ289، دار المعارف 1981.

الذي يعيش به على هذه الأرض، لتظل هناك دوما نظرية غير قابلةٍ للبرهان عليها، أو مقياسِ طاقةٍ غير معروف لنا، أو حدودٍ ممتدة، شاسعة، مجهولة، أمام تطلع الوعي البشري[45].

من ثم، كانت قاعدة القرآن الكلية : **فاتقوا الله ما استطعتم**[46]، وفي الحديث الشريف: عليكم ما تطيقون[47]، وغيرها كثير مما هو منثور في صفحات الكتاب العزيز ودواوين السنة النبوية، من التقرير التام، للحدود البشرية في الطاقة، والقدرة على الإستيعاب، بل وحتى إستقصاء ما للإيمان من أدلةٍ وبراهين من الصعب الإحاطة بكلياتها مطلقا؛ كما مر من آية سورة الكهف، وآية سورة لقمان، لكن من الجانب الآخر، ليس القصد ترك المجال مهتزاً تحت ظلال الإحتمالات والتخمينات، بل تقريرية القرآن الكريم، والعقل الرشيد المهتدي بنور الوحي، وأدلة العلوم المعاصرة المحكمةِ، والبعيدةِ عن الهوى والأحكامِ المسبقة؛ كلها تُبرِز أنوار الدلالات على الحق تبارك وتقدس، بل ليصبح الأمر مثل بديهة سامية، علوية، نبيلة وبسيطة، وكلية، قال تعالى: **أفي الله شك فاطر السماوات والأرض**[48]، فأنت ترى من أسلوبية الخطاب للأنبياء مع رسلهم، أن الأمر يصل إلى الإلزام الصريح، المباشرِ، والقطعي فيه؛ تبارك وتقدس.

لكن المقصود قطعاً، هو أن مدارك التفكير الإنساني، تصل إلى كلياتِ إشاراتِ الخلق ودلائله، أما كليةَ الإحاطةِ فليست واردة، لما للعقلِ البشري من الحدود.

---

[45] ليون ليديرمان، التناظر والكون الجميل صـ507، المنظمة العربية للترجمة 2009. وبرايان غرين، الكون الأنيق صـ418، المنظمة العربية للترجمة 2005.

[46] التغابن 16.

[47] البخاري، الصحيح 1113، عن عائشة.

[48] إبراهيم 10.

وهذه من الثمرات الجميلة، والعظيمة، من بركةِ القرآن الكريم، الذي يحول الفرد إلى كائن دائم التفكير والتقلاب لوجوه الإحتمالاتِ وفضاءات الإستدلال، حتى يكون الإيمان على بينة، ولاينحرف الفكر البشري، المتطلع دوما، إلى إيراداتٍ توقع في الخلل الأساطيري والشِركي والوثني، مع تقرير القرآن التام أن الفطرة البشرية، تظل فيها تلك البؤرة البعيدة واللامعة، التي تحتوي الميثاق القديم، الغيبي، في طيات الوجود البعيدةِ جدا، قال تعالى: **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**[49].

وبرأيي، إنما يقع الإختلال العقدي في التصور والمنهاج التوحيدي، على ماهو هنا وهناك في مسيرة الدرب البشري، ورحلته نحو تطلعه، وسموه، من محاولة التبريرية التامة في بعض الأحيان لقدرات العقل البشري، ليصبح الناتج مزيجا من الكائنات والأساطير التي خلقها العقل ليبرر بها الكون من حوله، لافي نفسِ الأمر، قال تعالى: **قل أدعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولاتحويلا**[50]، لكن، وعلى الخط المقابل نفسه، وكما مر آنفا، كانت ثمة محاولات مضادة تتصدى لهذا الخط، المضطرب، لكن هي نفسها تقع في الإضطراب، وطبيعة التوحيد، وطبيعة علاقة الإنسان بالخالق، وعلاقة الخالق بكونه، ليصبح المشهد ضبابياً غير واضح المعالم، وليصل الأمر إلى فوضى عقلية تامة قبل مبعث المسيح، عليه وعلى نبينا أفضل صلاةٍ وسلام، ومع كون تلك الفترة التاريخية قبل مبعث المسيح عليه السلام، شهدت زخما معرفيا، لكنه لم يستطع الإجابة على الحيرةِ البشريةِ وحلمِ التطلع الإنساني نحو أهدافنا النبيلة، والكونية، والوجودية، وصار الأمر أقرب إلى إغراقات فلسفية، وتدرجاتٍ مابين الرواقية والأبيقورية، واضطر العقل إلى الإنسحاب

[49] الأعراف 172.

[50] الإسراء 56.

والتراجع، وسط الإعلان التام عن عدم القدرة على السيطرة على منظومات سيرنا البشري، على المستوى المعنوي أو المادي، حسب إستنتاجية وِل ديورانت[51]، ليكون الوحي القادم مع المسيح عليه السلام، فيصلا معرفيا، وتاريخيا، والمنحنى قبل الأخير في سير تطلعنا، وشغفنا البشري، نحو الكشف عن هويتنا، وحقيقتنا، وهي الوظيفة السامية الكبرى للأنبياء، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين.

وغاية المقصود، أن القرآن الكريم، وبِحَثه الذي لا يتوقف على التفكير، يصنع فردا مميزا، على مستوى خصوصية الشخصية الإيمانية، التي تحتوي في جوهرها عموميةَ التجربةِ الإنسانية، مما هو من جمالِ القرآن الكريم وجلالهِ الأكبر، ولتصير تلك الخاصية ملازمة للفرد، في أسلوب التفكير النقدي، والرشيد، والمعلل بالدلائل الشريفة الملتقطةِ من الكتاب العزيز، وفي هذه الحالة، ستكون فاعلية الفرد على مستوى المنظومات التالية، على مضمار الأخلاق، والتواصل البشري، قوية، عقلانية، دافئة، وحقيقية، لأنها تستمد مادتها من كمال الإخلاص لله، جلّ اسمه وصفاته العليا.

[51] وِل ديورانت، قصة الحضارة 8\188، دار الجيل 1988.

الفصل الحادي عشر

القلق البشري وطبيعة وجودنا الممتد

ربما تطغى المادية الجافة على عالمنا اليوم، وقد نكون في حالة نظنها هي حياتنا الحقيقية، لكن في الحقيقة هي ليست إلا ظلا شاحبا، ومتواريا، لما يمكن أن تكون عليه تلك الحياة التي توجهها كليات الإسلام، وقواعده، التي تُبنى أول ما تُبنى على منهجية الكتاب العزيز، التي تشير أول ما تشير إلى التوحيد النزيه والصافي، باعتباره أداة التقويم الأولى للأنظمةِ والأنشطةِ البشرية، والمحور الذي يدور حولهُ رحى الإسلام المتسامح، والمتحرر كذلك.

لكن، ربما اليوم ومع كثرةِ تعقيدات الحياة في عصرنا، يصبح الإنسان مختطفاً للكثير مما ليس هو قطعا من إرادته، تلك الإختطافات التي تجعلنا أحيانا كأننا غرباء عن أنفسنا، ومصيرنا، وحقيقتنا، لنشعر أحياناً بذلك التوجس العميق، وربما القلق الخفي المتسلل الذي يسوقنا قطعاً إلى محاولة الإجابةِ، والبحثِ عن تلك النقاط المضيئة، التي يمكن أن تحدد حركة السير الإيجابية، وفق معطيات القرآن الكريم، الحرة، والمتجددة.

ولايغفل الإسلام قطعا ذلك التأثير الذي قد يسقطهُ الواقع علينا، وعلى قوة على التفكير المتحرر، وقدرتنا على النقد، والتمييز، وفرز الصواب من الخطأ وفق دلائل الكتاب والسنة، فينهى تبارك وتعالى عن إتباع الظن، الذي ليس إلا إحتمالاتٍ تخبط في غابة لاتتبينُ ملامحها، قال عزوجل: **وماهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لايغني من الحق شيئا**[52]، وقال تعالى: **ولاتقفُ ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان**

[52] النجم 28.

عنه مسئولا[53]، ليصير اقتفاء خطى الواقع دون تمحيص، أو علم حقيقي وفاعل، منهيا قرآنيا منهجيا، حتى يكون المسلم على بينة، ووضع صحيحٍ للأمور في مواضعها التي تستحقها بلا إفراط، أو دهشة، أو أحكامٍ سريعة غير دقيقة، وهذا ينتظم كل أنظمة الحضارة على مدارات الإعتقاد، والأخلاق، والتواصل البشري، والتفعيل الحكيم لطبيعة وجودنا الحق، والغائي، المعتمد على نورِ القرآن وهدايته.

وعلى النهج الآنف جاءت نصوص السنة النبوية الشريفة، ففي الحديث: لاتكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا[54]، ليضع نبينا صلوات ربي وسلامه عليه معيارية تامة كاملة، لوزن الحقائق، والمعقولات، والإنتاج الفكري والثقافي والحضاري بعامة، حيث لايكون مجرد التقليد هو الحاسة التي يتبعها المسلم أثناء خط سيره، لكن، الحسَ النقدي الفاعل، والقوي، والمتحرر، لكل المعطى الحضاري، وفي كل عصرٍ بإطلاق.

وأكادُ أجزم أن هذا القلق الذي ينتاب الإنسان وسط رحلة الحضارة برمتها، إنما يأتي من تلك اللحظاتِ الخفية، الغيرِ الواضحة، التي نتخلى فيها عن عقولنا، وقلوبنا، وصولا إلى حالة الإستسلام التام، أمام الحياةِ التي أمامنا كما هي، بكافة غزارتها الثقافية، والفكرية، والحضارية، والصناعية، وكل ذلك الطيف المتعدد الألوان من معطياتِ الحضارة وسبلها، والذي قد يسلبنا قدرتنا على النقد، والتحقيق العميقِ لماهياتِ الأشياء، وفق منهجية القرآن الكريمِ، والسنة النبوية، كما مر من بعض أمثلتهما، وفق دلالة كلية فحواها أن العقل المسلمِ، عقلٌ ناقد بالأولى، وليس في إمكانه قطعا قبول معطيات غير متسقة مع أصوله الفكريةِ المنهجيةِ الحضارية.

---

[53] الإسراء 36.

[54] الترمذي، السنن 2014، عن حذيفة.

وهذا يورث القلق، والإضطراب، ويعكس تلك الإشباح التي تترآى في مرايانا، خفية، شاردة، مغادرة، وغائمة، وغامضة، ولانستطيع ربما التخلص منها، إلا بالضوء التام المطلق من الوحي المطهر، قال تعالى: **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا**[55]، وقال تعالى واصفا تلك الحالة من التخبط البشري القلِق، والمضطرب، وفق اهتزازِ المعايير والأصول: **ومايستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الحرور. ومايستوي الأحياء ولا الأموات**[56].

ومرآة عصرنا اليوم تعكس هذا القلق الذي يظلل على حياة الناس، على مدارات السياسة، أو الإقتصاد، والإجتماع، والثقافة، وكل حِراكنا الحضاري؛ في هذا العصر، المليء بالمنجز البشري المدهش، والجميلِ بالطبع.

لكن، رغم هذا المنجز المادي الهائلِ والمثير للإعجاب؛ قطعا لطبيعة عصرنا، وهو تجميع للتجربة البشرية طوال قرون وقرون، من أيام المدن السومرية والأكدية في بلاد مابين النهرين، مما شكل لاحقا تلك البؤرة المركزية التي انطلقت منها مدنيات العموريين، والكنعانيين، والآراميين، وذلك الخليط المدهش في التاريخ القديم للعراق وسوريا؛ المدعوم بالهجراتِ الديناميكية الفوارة من قلب جزيرة العرب، لتتشعب أفرع العلوم، والقوانين، والآداب، والتشريعات، وأنظمة الدولة والحضارة، ثم لتهدي المنطقة إلى العالم سر التطور البشري، ومادة العقل الأولى: الحروفَ الأبجدية، من شواطيء لبنان القديم، بعد عملية مزجٍ وتلاقحٍ لآلافِ السنين العميقةِ والماضية، لتنطلق الشعلة عبر القرون ثم القرون، إلى حداثتنا المعاصرة، عبر النهضة الأوروبية الصناعية؛ وأوروبا نفسه؛ أي الإسم،

---

[55] النساء 174.

[56] فاطر 19-22.

ليست إلا أميرة عربية كنعانية ثم فينيقية قديمة، من شواطيء الشام، دليلا على التمازج والتدفقِ الحضاري المتبادل.

هذا، فالتراكم الحضاري اليوم، سليل دورة طويلة من شغفنا، ورحلتنا نحو البحث، وحب الإستطلاع، لكن أنياب القلق بدأت تنهش في الضمير الإنساني، خالقة تلك الحالة التي نعانيها اليوم في أوج حداثة عصرنا، وكأنها تلك الإشارة إلى الشيء المفقود، الشيء الذي يوازن عملية وجودنا هنا على هذه الأرض، ليجعل الخطوات محسوبة، دقيقة، بل وممتدة إلى هناك؛ إلى اليوم الآخر، الضابط القرآني المنهجي، لمسيرةِ التطلع البشري، وقلقه، بل وحلمه، وتوقه.

الفصل الثاني عشر

القلق والتشتيت المبعثر للحلم البشري

مر سابقا أن طبيعة العصر تورث فينا ذلك القلق السلبي، الذي يحولنا إلى كائنات تريد شيئا ما، ولكن، كأنها لا تعرفه، تلك الحالة من عدم الإتزان، والسقوطِ الحزين، في هاويةٍ عميقة، وموغلة.

بالمقابل، لايعني هذا نشر ألوية كبيرة، من حالة الرثاء، والحزن، وتوقعات الإنشقاق العاطفي، والوجودي لحضارتنا، لأن دين الإسلام، في جلاله وسموه، يعلّم تلك النزعة المتفائلة، والراغبة دوما في إصلاح الخلل، وتقصي أخطاء السير، نحو حلمنا البشري، المشترك، والموحَد، لطبيعةِ وحِدة النفس الإنسانية؛ كما مر في الفصل الأول. ترغب بنا نصوص الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، إلى تفعيل القدرة الإيجابية دوما على التعامل مع معطياتِ الواقع، وحقائقه، فهي مهما تعاني من الإرتباك، لكن ضوء التفاؤل المطلق موجود دوما.

قال تبارك وتعالى: **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**[57]، وقال عَز مِن قائل: **فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب**[58]، وقال سبحانه: **ولاتيأسوا من روح الله**[59]، ورَوح الله

---

[57] فصلت 30-31.

[58] الزمر 17-18.

[59] يوسف 87.

-بفتح الراء المهملة- هي رحمته، وفضله، وفرجه[60]، وذلك الطيف المنتشر من التفاؤل، والأمل.

وأنت ترى فيما مضى من آيات الكتاب العزيز، أن البشرى بالخير والأمل، والحث القرآني الكريم على عدم اليأس، محيطاً كلَّ ذلك بطبيعة القرآن التوحيدية الصافية، كما مضى القول في سالفِ البحث، كل ذلك هو الطوق الأكبر الذي يرفع النفس البشرية عن الوقوع في مستنقع اليأس، والقلق، والخوف من المجهول، والمستقبل، وتوقعات الحروبِ والفناء البشري، والإشكالياتِ البيئية الكوكبية المتوقعة، التي مالم يتحدِ البشرُ حول تحديد نسقٍ للحل بشأنها، ستصبح مهداً أكيداً لصيرورة الحضارة البشرية وتطورها، إذ كل هذه المعطيات التي تحيط بنا اليوم توجب حقا الوقوع في اليأس، إلا عند الإستمساك بمنهج القرآن الكريم، في معرفة الخالق، ومعرفة التوحيد، ومعرفة مناطات الإستدلال عليه جلّ وعلا، ومعرفة المآل والمصير، لما وراء هذا العالم.

والحقيقة أن القلق، هو تطلع النفس مع عدم القدرة؛ القلق السلبي أعني، حيث ثمة إرادة ما، ورغبة ما، وتطلعاً نحو شيء ما، لكن، هناك موانع تحول دون وصول المرء إلى ما يريد، ولانذهب بعيدا إن قلنا أن أقسى تلك التطلعات؛ تلك التي لاتجد ما يسكّنها أو يشفيها، هي تطلعاتنا البشرية النفسية، من الأمان، والحب، والدفء النفسي والعائلي، والتفاؤل تجاه وجودنا، وحياتنا، وعالمنا، والإقتراب من الحوافّ العميقة لحقائق الكون، ومصيرنا، ومن نحن، وإلى أين؟

وعبر مسيرة الحضارة البشرية، كانت مظاهر هذا القلق بادية جدا، وقد تقدم في الفصل الأول لمسة يسيرة منها، فعبر التاريخ الإنساني، ترى تلك الرغبة البشرية في الهروب، وثمة تدوينات يونانية قديمة عدمية النزعة، بائسة وحزينة، وفي لحظات مفصلية

---

[60] ابن أبي حاتم الرازي، التفسير بالمأثور 5\420، دار الكتب العلمية 2006.

من تاريخ اليونان، الذين كانوا يعتزون دوما وأكثر بأصولهم المشرقية، بل ويرى باحثون معتمدون أن أثينا في عهدها الأكبر، عهد بركليز، كانت شرقية المنزع بإطلاق.

أقول: في تلك اللحظات، انتشرت حالات الجدل السوفسطائي العنيف، وموجات هائلة من الإلحاد، وموجات كذلك من التقشف والعيش مثل الحيوان، كما ترى عند أصحاب الفلسفاتِ الكلبية اليونانية، ولعل فيها تأثيراتٍ من جملةِ الهندوسية الهندية، أو ربما غيرها مما هو أوغلُ تاريخاً، وكانت الإحتفالات الدينية تنمو نحو العهر والتعري والتحلل، لما كانت الآلهة المزعومة ليست إلا أنصاباً حجرية في ساحات أثينا أو حواف الأولمب، ولم تستطع هذه الآلهة منع الفرز الطبقي الرهيب الذي عانت منه أثينا وحلفاؤها الإيجيين، ولم تستطع تلك الأوثان المنصوبة حماية الضعفاء، وإطعام الفقراء، ولا زرع أراضي الحواضر الهيلينية بعد أن أصبحت خرابا، بسبب نقص الشعوب اليونانية الإيجية، مع انتشار هائل للحروب الأهلية بين أثينا من جهة وأسبارطة من جهة أخرى، حروب اقتصادية للسيطرة وبسط السلطان بالمطلق، تقودها أوليغاركية -قِلة- ثرية، عسكرية، تحارب حلم التطلع البشري، والتحرر، لتدخل الحواضر الهيلينية كلها في حالة رهيبة من القلق، والتمزق، والإلحاد، وانتشار المدونات الفلسفية اليونانية أن الأفضل للمرء في هذا العالم أن لا يأتي من الأصل، وينطبق هذا التقرير، حتى على عهد بركليز، الحاكم الأثيني، إذ السيطرة الأوليغاركية تسحق الحلم البشري المتطلع نحو الحياة، والحرية، والإنفتاح نحو الآخر، إذ حتى المستوطنات اليونانية على سواحل المتوسط الجنوبية كانت نوعا ما تندمج بهدوء مع السكان الأصليين، عكس الرومان، الذين كانت تغلب على طباعهم الوحشية، والتعذيب، وإفناء ولايات إمبراطوريتهم، الممزقةِ بالأصلِ من المركز، من روما.

والمقصود، أن مسيرة القلق البشري كانت دائما موجودة، موازية دائما لوجودنا، ولكن، اليوم يمكن الإحساس به بكثافة نظرا لطبيعة العصر المعلوماتية المفتوحة، وإنتقال

المعلومات والأخبار في كل ثانية، حاملة إنكفاءات حداثتنا المعاصرة، ليتمظهر القلق بصورة أكثر شمولا ومساحة، يضاف إلى ذلك أن إضطرابات الحضارة تتطور مع تطور الوجود الحضاري للإنسان، فمن ثم كانت وجوه القلق في عصرنا، تبدو أكثر إيغالا، وتعقدا، وتفشيا، حتى ولو بصورة لاشعورية من الفرد، أو حتى المجتمع.

الفصل الثالث عشر

السيدة أرمسترونغ ومحاولاتنا الدائبة للبحث

مع قراءة الفصلِ السابع، والأخير، المعنون: التحول الغربي الكبير، لكارين أرمسترونغ[61]، يشعر بالمرء بالحزن، وبتلك الخناجر والدبابيس المؤذية، التي تصل أعماقه، ويعرف أن الطُرق قد تصل حداً من التشعب والإرتباك؛ يحتاج إلى وقفة شديدة، وتأمل حيادي، وقدرة حقيقية، على قراءة الإمكانيةِ الصحيحة لفهم واقعنا، وصيرورة حضارتنا المعاصرة.

وكما سلف؛ فليس في هذا دعوة للرثاء، وبناء أنسجةٍ حزينة للواقع الحضاري اليوم، فتقدم أن القرآن الكريم هو رسالة البشرى، والأمل، والتحدي المحاط برحمة الله، وفضله، وعظيم الرجا فيه جل وعلا، والنبي صلى عليه وسلم يقول في الحديث الإلهي عن الحق جل وعلا: أنا عند ظن عبدي بي[62]، وفي بعض الآثار النقلية: حسن الظن من حسن العبادة[63]، وكان من عادة رسولنا صلى الله عليه وسلم أن يوصي الصحابة رضوان الله عليهم، بمنهج تربوي كريم، وحكيم، ينير للنفس البشرية دربها وطريقها، ليضع لهم آلية تتعامل مع الواقع رغم كل تحدياته، بصدر منشرح، ونفس وثابة، فقال صلى الله عليه وسلم: بشروا ولاتنفروا، ويسروا ولاتعسروا[64]، لتكون هذه منهجية نبوية شريفة، تتداول

---

[61] كارين أرمسترونغ، تاريخ الأسطورة صـ107، الدار العربية للعلوم ناشرون 2008.

[62] البخاري، الصحيح 7010، عن أبي هريرة.

[63] أبو داود، السنن 4404، عن أبي هريرة.

[64] مسلم، الصحيح 3365، عن أبي موسى.

مع الواقع، وإن كان فيه قسوة وألم، وفق كمال اليقين، ولطف الظن، والنورِ الوضّاء من الأمل، المقتبسِ من نور الإيمان بالله جل وعلا.

لكن، لا يمنع هذا من التعاطي الفعلي، الذي يمس الواقعي، والعملياتي، على الأرض، بحسب المفردات التي تطرحها حركة التطور البشري، رغبة في الإصلاح والتقويم، قال تعالى: **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله**[65]، وقال تعالى: **ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها**[66]، ليصير الإصلاح والتقويم، حسب منهج الرسل، هو النسق الكماليّ للوجود الإنساني، متضمناً البشرى، والتيسير، ورفع سقفِ الأمل، والرجاء البشري، خاصة في عصر، مع كل مُنجَزِه الحضاري الفريد، يعاني أزمات معقدة.

وبالطبع لاينظر القرآن الكريم، ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم، إلى الكائن البشري، ومسيرة تطلعنا وأحلامنا على هذه الأرض، على أنها صورة في عالم المثال الحالم، أو أنموذجا من يوتوبيا تعذب ضمير البشرية، لنقع صرعى تحت حالة لانهائية من الجلد الذاتي، والتعذيب النفسي، في حالة تهور مندفع وخاطيء، كلا، يقول جل وعلا: **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله**[67]، ويقول النبي الكريم صلوات ربي سلامه عليه، موضحا الطبيعة البشرية المتقلبة بين الخطأ والصوابِ، وقلق الإحتمالاتِ: كل ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطائين التوابون[68]، تأسيسا لمنهجية الرجوع إلى الحق، وتقبلِ النقد، ومعرفة أن التجربة البشرية قابلة للتهاوي في أودية مضطربة، وقلقة.

---

[65] هود 88.

[66] الأعراف 56.

[67] آل عمران 135.

[68] الترمذي، السنن 2536، عن أنس.

وعرض كارين أرمسترونغ، الباحثةُ البريطانية المرموقة، في كتابها الآنف، يصل تلك اللحظات من القلق المستفحل، مع تلك اللحظات من البحث عن الحقيقة، وتلك اللحظات من التشوق إلى راحة الضمير والإعتقاد، نحو بناءٍ إعتقادي متين ومحكم، التي صارت طائفة من الناس في عصرنا تتطلع إليها، مع تلك اللحظات الحزينة، التي صارت تظلل وجودنا، في طرفٍ من تحليق أجنحةِ هذا العصر، وفي خضم حالة التيهِ والظلام تلك، نسقط صرعى تحت وهج خدّاع من الأساطير، التي نظن أنها يمكن أن تنقذنا من ضجر المادة المعاصرة، والتي، حسب إشارات السيدة أرمسترونغ، يمكن أن تكون السبيل لسمو الروح، وجلالة النفس، والخروج نحو أفق آخر، بعد شبه إنعدامٍ للأوكسجين الحيوي من الحرية والأمل، في حضارتنا اليوم.

وهذه بؤرة مطروقة من كبار كتّاب الغرب ومفكريه، مثل جيبون، وشبنجلر، وتوينبي[69]، تلك الحالة من الشك في مسار الحضارة المعاصرة، والحاجة إلى الدفء الروحي القويم، الذي يروي أبعادنا الأخرى المتطلعة، مما يوازن ولو على الحد الأدنى هذه الحالة من الطفوِ المخيف، والمزعج، للفرد في عصرنا، الذي ومع كافة ضروب الحضارة المذهلة، يفقد ذلك الشيء، في العمق، وفي قرارةِ نفسه المتطلعة، ذلك الحلم القديم، الذي تسعى البشرية إليه دوما، عبر رحلتنا القديمة كذلك.

---

[69] عبدالباسط الناشي، آليات الإقناع في الخطاب الديني ص323، الدار التونسية للكتاب 2016. ومحمد ربيع، صنع التاريخ: نظرية في التاريخ وتطور الحضارات ص175، دار اليازوري 2018. وزاهدة محمد، صورة الشرق بين الفلسفة الغربية والإستشراق ص129، دار المعتز 2016. وحسين مؤنس، الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ص304، سلسلة عالم المعرفة 1978. وعلاء عبدالعزيز، فقه التغيير ص41، دار النشر للجامعات 2011. ومصطفى نشار، فلسفة التاريخ: نشأتها وتطورها من الشرق القديم حتى توينبي ص286، نيوبوك للنشر 2017. وعلي حسين، فلسفة التاريخ والحضارة في الفكر العربي ص21، دار الكتاب الثقافي 2005. وهاشم يحي، الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل ص260، دار الكتب العلمية 2010.

وقد مر في سابق البحث، كيف أن الأساطير، والخرافات، والتصورات الخيالية الجامحة، كانت عند طائفة من خط سيرنا الحضاري؛ تكافيء المناط التأويلي والتفسيري للكونِ، وللحياةِ، وللغز وجودنا في هذا العالم، لننسج مجموعة من الخيالاتِ الجامحةِ البشرية، التي نحاول بها إطفاء عطش تطلعنا؛ نعم، قد تكون في نفس مبدأ التطلع على صواب، مع بداية حالة رغبتنا في الكشف والسبر، لكننا، لاحقا، وأسطوريا، سنقع في حالة التأويل الخاطيء، لطبيعة الكون، والوجود، وحقيقة الأنظمةِ المبثوثة فيه، وهذا بالطبع مما جعل إبراهيم عليه السلام؛ من العموريين، من مدينة أور في بلاد ما بين النهرين؛ في زهاء الألفِ الثاني قبل الميلاد، يحارب تلك الأساطير المبثوثة في المجتمع، حول محاورِ الشرك والتوحيد، ومحاورِ التوصيف الحقيقي للخالق، وللآلهةِ الشركية الأخرى المزعومة.

قد تكون الأساطير تمثل تلك المرحلة من محاولاتنا للفهمِ والسبر، لكنها قطعاً لن تمثل تلك الحالة النهائية للعقيدة الصحيحة، عن الكون، ومنظوماتهِ العظمى، لسبب بسيط، لأنها عقيدة الشرك، والتجسيد، وضباب الرؤيا، لأنفسنا، وللعالم حولنا، فلن تكون قطعاً خاتمة المسير البشري المتطلع نحو التحرر، والإنعتاق، وبالطبع لن تكون الأسطورة طوق النجاة من قلق عصرنا الحاضر؛ حسب إشارات السيدة أرمسترونغ، وطوق النجاة واضحٌ وبسيط، لكنه فقط ذلك الغِشاء؛ الأغبش، الذي يعكر صفو عصرنا الحالي؛ الجميل بالطبع، لأن الفطرة الإنسانية دائما مضيئةٌ، وجميلة.

الفصل الرابع عشر

روبوتات أزيموف وانعكاس الخط البياني للحضارة

لماذا نحن قلقون إذن؟ بصورة أدق لماذا هذا الجناحُ الكبير، الذي يمر فوق سماء عصرنا، من القلق، والشعور بالفقدان، والحرمان؟ على حسب العرض المذهلِ، والمعبرِ للسيدة أرمسترونغ، على ما تمت الإشارة إليه في الفصل السابق، ما الذي ينقص إنسان هذا العصر؛ ولو على وجه التخصيص البسيط، من كل أدوات الحضارة، والرفاهية، والقدرة على التمتع بموارد الأرض، وخيرات الطبيعة، والتحكم فيها، وفق المعطياتِ المصاحبة للحِراك البشري؟

ربما يبدو هذا التساؤل مباغِتا، وإن كان شديد الوضوح، وربما بديهيا وبسيطا، على عادة كل الأنساق الكبرى في العالم، وعبر تاريخنا، وأنظمةِ الكون الممتد، وسياقاتِ المسير البشري، ففي آخر الأمر، تتجرد الحقائق إلى السطح المبسط، المباشر، والنهائي، والقطعي، ولايلزم من ذلك، إستباق خاصية ما، أو مبرر ما، بل هي الصيرورة النهائية، للمنظورات، والمُستَدَلات.

ورغم كل الأشياء المدهشة والفاتنة، الجذابة والآسرة؛ في عصرنا، حيث يزدحم العصر بكل ماهو بهيجٍ ولامع، بالمتعة والرفاهية، وجمال المدنية، وعولمة المنتج، والأفكار، بل وحتى الأحاسيس والمشاعر، والتي تحولت إلى أيقونات صغيرة؛ باسمة أو متفكرة، عبر منشورات وسائل التواصل الإجتماعي، بل وأصبحت الأحلام نفسها معولمة، بل ومشاركة كل حادثة على الكوكب، وكل قصة هنا أو هناك، وكل شعور صغير متفرق في زاويةٍ من زوايا الأرض، فبضغطة زر صغيرة، سيجد الانتشار، والتعليق، والمواساة،

والإعجاب. رغم كل ما سبق، يخفق فوق سمائنا الإنسانية، ذلك الجناحُ الهائل، الغامض، والمرِبك، من وهج، وحفيفِ القلق.

لم يعد هناك اليوم؛ ما يختبيء، وربما لهذا صارت تمظهرات القلق، والبحث المضني، والسبر المستقصي الذي لايكل، خصيصة لعصرنا، وفي الحقيقة، يبدو الأمر أحيانا وكأنه سباق فورملا-وَن حضاري وشرس، من جانبٍ هو ذلك التطلع البشري، نحو الإعمار، والإستكشاف، الخصيصةُ العمومية في الوجود الإنساني التي أقرها القرآن الكريم، وظهر من سالف البحث، أنها تمثل جزءاً مبدئياً من جملة أبنية الإسلام الحضارية العظمى، في أريحية الإعتراف بالشغف لا الجمود، والبحث لا التقليد، والإمكان حسب الوسع البشري، لا الإستحالةِ حسب العجز.

ومع كل هذه الثيماتِ العظيمة لعصرنا، تبرز تلك الظواهر المرصودة، في طبيعة الكائن البشري، المعقدة حقا، والتي كما سلف، كانت مصاحبة لرحلتنا الحضارية الكبرى، مكونة نوعا من التمزق دائما، بين إرتقائنا المادي، والتحرق والعطش المعنوي؛ نحو أسئلة الهوية والحقيقة.

وهذه مفردة مطردة عبر التاريخ الإنساني، فكل حضارة مهما بلغت من تطور عملي، وتشريعي، وعسكري، بل واستبقت أعلى سلم الكماليات البشرية إلى آخر وسعها، ستهوي في ذلك المستنقع الرهيب، من التردد، والنواح، والهياج القلِق لمعنى وجودها، وغاية الإنسان، والكشف عن الخبايا، تلك التي لا نعرفها، خلف حجابِ السماوات، وآفاقِ الكون الممتدة.

ربما لهذا يرى باحثون أن الإمبراطورية الرومانية؛ إنما تمزقت لأنها فقدت مبررات بقائها، وتحولت إلى كتلة متراخية، من ذوي البطون الضخمة العملاقة التي تستلب خيرات الولايات الرومانية، في الشام، ومصر، وقرطاج، ولم يكن ذلك التفاني النبيل من ثوريين

من أجل الحرية، مثل إسبارتكوس، ولوسيوس سرجيوس كاتلين، وغيرهم، إلا أنموذجا إنسانيا رفيعا، أن الحياة لامعنى لها، من دون معنى، وأن التدشين الحضاري لكافة المنتوج الضخم والعملاق عبر مسيرة التوسع الروماني، لايغطي على آلام حسِنا الحزين، المتطلع، المطعونِ بتلك الدبابيس، والخناجر الحادة، التي لاتريد السكون أو الهدوء.

لابد من أن يدخلنا القلق إذن، ولما كان تعميم السُموتِ العامة للتجربة البشرية الحضارية ليس مستبعدا عندي، فحينها ستكون التجربة الدائرية موجودة دوما، تلك التجربة التي تنطوي على عنصرين محورين: كثافة المنتج الحضاري، وكثافة قلقنا المصاحب.

تعرض كارين أرمستورنغ في الفصل الآنف؛ من كتابها الذي سبقت الإشارة إليه، تلك التحولات، والهروب، والمحاولات المجنونة للإمساك بشيء، أي شيء؛ المهم، بلُغة ولو عابرة من معنىً سامٍ مفتقد في ضجيج آلاتنا الحضارية الجبارة، التي لاتكف عن الدوران، ولو كان ذلك المعنى يتم عبر الإغراق في المتع الجنسية، أو عبر موسيقى الروك آند روك، بكل عنفها وصخبها وغضبها، أو الهروب نحو الأساطير القديمة، المضمخة بالشِرك، والضبابية، حول الاتحاد بشيء ما في الكون، الذي لا إله له؛ المهم، شيء ما يسمو بالروح القلقة، أو العودة إلى الوثنيات القديمة، ودعوةِ آلهة البحور، والغابات، والجبال، والأودية المظلمة؛ كما تشير إلى ذلك التقاريرُ القادمة من القارة الأوروبية، بانتشارِ التقديس للآلهة المحلية القديمة قبل العصر المسيحي، أو ربما يكون البحث حتى في لمعان الأبطال الخرافيين، والخارقين، أو عوالم موازية، أبدعت السينما الحداثية في خلقها، لأن كل ماسبق ذكره أو غيره، قد يمثل لنا فرصة للتأمل، والهدوء النفسي، بغض الطرف عن حقيقة أو أسطورية القيمة التي نتأمل فيها، وكما سلف، ليس المهم إلا ماءاً بارداً، يطفيء حريق عطشنا القلقِ.

يظهرُ التوازي إذن. فعبر رحلةِ الحضارة البشرية، لم يكن التطور المادي يمثل قيمة معيارية لحلمنا وتطلعنا، أو لشوقنا الكثيف للحرية الحقيقية، وكشف أستار المعارف

الكبرى في الكون، بل ربما يتوازى التطور المادي مع إرتفاع هائل للخط البياني للقلقِ البشري، من ثمّ؛ سنظل قلقين، رغم أدوات السيطرة والتحكم الحالية ضمن مساق الحضارة المعاصرة، لأننا لسنا روبوتات تحركها رغباتها الجافة فقط، بل ثمّ ما هو أعمق، وأعظم، ولايغطي عليه التمكن التكنولوجي للعصر. ومن اللطائف الإستدلالية، أن الروبوتات في نصوصِ رائد الخيال العلمي؛ الكاتب الأمريكي إسحق أزيموف، ملت حتى من كونها روبوتات، وبدأت تسأل البشر الذين قاموا بصنعها، عن أسئلة الوجودِ الكبرى[70]، لتقوم الروبوتات في آخر الأمر بالتمرد الكوكبي الضخم، عبر منظومات مجرية ممتدة، وليكون الدافع من تمردها هو الإستيلاء على المخزون الأثمن في التجربة البشرية: المشاعر، والأحاسيس، والقدرة على إدراك أهداف وجودنا الكبرى، والنبيلة.

[70] إسحق أزيموف، أنا روبوت صـ49، دار نهضة مصر 2012.

الفصل الخامس عشر

صفاء التوحيد ورحلة القلق وحيرة لكريشيوس

في الآية الكريمة: **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب**[71]، ويقول نبينا الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه: مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت[72]، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم، جعل الحياة الحقيقية، لا مجرد الحياة التي تنقضي تحت أعمالنا، وشواغلنا، هي تلك تلك الحياة، واللحظات، والأوقات، التي نذكر فيها الله تبارك وتعالى.

والآية الكريمة جعلت الطمأنينة، وإخبات القلوب، وسكينة النفس، وشفاء ذلك القلق الهائل الذي يسري فوق سماء العصر، بل وفوق كل سمائنا عبر تاريخنا البشري، في ذكر الله جل وعلا، لينشرح القلب، وتنبسط الروح، وتنفتح تلك النافذة الكبرى، من المعارف، والبصيرة، ووزنِ الحقائق بميزان الوحي الأجلّ الأكبر.

وليس المقصود هنا، وعبر نص الآية الكريمة، ثم نص الحديث النبوي الشريف؛ ليس المقصود، قطعا، أو لنقل، كلية، فحسب تلك الأذكار الواردة مثلا عن النبي صلى الله عليه وسلم في أحواله المختلفة، في الأكل والجلوس، وعِشرة الناس والأسرة، هذا جزءٌ أصيل من ذكرِ الله جل وعلا، وكمال الصلة به تبارك وتقدس، لكن، كذلك، فالتفكر ذكر، وعقل آيات الله الكبرى في كونه، وعلل الأحداث والمنظوماتِ الكونية الكبرى؛ ذكرٌ، والإلتفات إلى النِعم، وتسخير السماوات والأرض للغايات الكبرى، التي تضمن للبشرية

---

[71] الرعد 28.

[72] البخاري، الصحيح 6070، عن أبي موسى.

مسيرة التقدم العلمي، والعقلي، والثقافي، والحضاري؛ ذكرٌ كذلك، وربما هذا بعض من معنى قوله جل شأنه: **ولذكر الله أكبر**[73]، لما كان الإستيعاب بهذه الصورة الآنفة، وليست حصرا بالطبع، يتسع لمجالات الحياة كلها، ووجودنا، وفهمنا لأنفسنا، وغاية حِراكنا البشري، فيكون الإنسان كائنا دائم الذكر لخالقه، كما يهذبه القرآن الكريم أن يكون كائنا متفكرا، على ما مر في الفصل التاسع، فالذكر والفكر، جنحان متعاقبان، أو هما لنقل وجهان لعملة واحدة، غايتها التوحيد، وتحقيق المعرفة الصحيحة للإنسان، وسوقهِ وفق الأدلة والبراهين، على جمال الوحي، وكماله، والإهتداء به.

وليس القلق إلا تلك الحالة التي ينسى فيها الإنسان، وشريحة واسعة من مسيرة الحضارة البشرية، معرفة الخالقِ على الوجه الصواب والتام، وفق آلية القرآن الكريم البسيطة والسهلة، عبر تأمل منظومات العالم والكون، وعللها ومقاصدها، إلى أقصى الإمكانات العقلية المتاحة للإنسان، ليصل بعد ذلك إلى حدود العقل التي يقف أمامها خاشعا، راهبا، سواء في طبيعة أنظمة الكون التي لاتكف عن التجدد، والحِراك الوجوديّ العملاقِ واللامتوقف، ثم في طبيعة الخالق نفسه جل وعلا، فمن ثم أسس النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قاعدة جليلة هنا، فقال: تفكروا في آلاء الله، ولاتفكروا في الله عزوجل[74].

تلك الحالة من الطمأنينة، وثبات الروح، والعقل، وإطفاء تلك النيران المشتعلة من القلق المعاصر، إنما تأتي من ذكر الله تبارك وتعالى ومعرفته، وتكوين الإعتقاد الصحيح عنه جل وعلا، وعن طبيعة وجودِ الإنسان وهدفه على هذا الكوكب.

وظاهرٌ هذا التلازم الجميل بين الذكرِ والفكر، وإن كان كلاهما بوجهٍ ما نوع من ذكر الحق جل وعلا، فالتعرف عليه تبارك وتعالى، ونعمه وغايات كونه، وأياديه على خلقه،

---

[73] العنكبوت 45.

[74] البيهقي، شعب الإيمان 113، عن ابن عمر.

وفق حِكَمِ الخلقِ وعلله، توجب كمال ذكره، ومحبته؛ تبارك وتقدس، والإخبات إليه، ولزوم جنابه الأجل، والطمأنينة والسعادة، في رحاب ظلهِ الأكرم.

من دون ذلك قطعا، سنظل تلك المخلوقات القلقة، المتوجسة، الخائفة من شيء لاتعرفه، وسنبحث عن أي شيء للسعادة والهروب، كما قررته كارين أرمسترونغ؛ على ما تمتِ الإشارة إليه، أو حتى في الأكل والشراب والمنازل الريفية التي لم تعد تزيدنا إلا ضجرا، لأننا نهرب من أنفسنا التي لايمكن الهروب منها؛ حسب رأي لكريشيوس الشاعر الروماني القديم (94-55 ق.م)[75]، عندما رأى الحياة في روما؛ وهي من تجاربنا الإنسانية عبر مسيرة التطلع البشري، تنحدر بائسة، حزينة، ومع ثروات الإمبراطورية، من سوريا إلى إسبانيا، كان هناك ظلٌ أسود يخيم، حتى أن لكريشيوس نفسه، وهو الشاعر الرقيق، المرهف الحس، الذي يقف أمام جمال الطبيعة، مسحورا، مأخوذا، خاشعا، يضطرب، يقر بالآلهة حينا، وحينا لايقر بها، وحينا يقول أنها خلف حدود الأفق الكوني البعيدِ البعيد، في دعةٍ وسلام، وأنها ليست مسئولة عن آلامنا، ووحشتنا، وقلقنا؛ في روما وإيطاليا، التي حرقتها الثورات ضد التسلط الأوليغاركي الرأسمالي العسكري، أو في العالم كله، وفي آخر الأمر، لم يجد إلا الركوعَ أمام الحبِ فحسب، في تمثال فينوس الوثني.

مالذي يُذهِب القلق إذن؟ في أبنية الإسلام الحضارية الكبرى، تجتمع كل الخصائص الحضارية تحت مظلة واحدة فقط، بسيطة، فطرية، وعميقة، بعمق هذا الكون الأكبر، الذي لانكاد نعرف عنه شيئا، سوى أن عدد النجوم في مجرتنا التي ننتمي إليها فحسب يتجاوز 400 مليار نجم، حسب آخر إطلاع بحثي للكاتب، 400 مليار بُعدٍ، وعالمٍ مجهول، و400 مليار حقيقة، نقف أمامها حيارى، وقلقين.

---

[75] منير البعلبكي، معجم أعلام المورد ص392، دار العلم للملايين 1992. ومحمد مندور، محاضرات عن خليل مطران ص33، مؤسسة هنداوي 2021. وكامل محمد، أبيقور: مؤسس المدرسة الأبيقورية ص50، دار الكتب العلمية 1994.

يفعّل الإسلام منظومته الحضارية الكبرى على أساس خاصية التوحيد الأعظم الأجل، الدقيق، والفطري؛ كما سلفتِ الإشارة إليه، منبها إلى تلك البؤرة الصافية، والجميلة في عمق الكائن البشري. يأتي القلق، والوحِدة، والوحشة، من أخطاء الأدلةِ والمدلولات، وسحاباتِ الشرك القاتمة، والخطأ التصوراتي المنافي لجمال التوحيد، وصفاء العقيدة التوحيدية، ونقاء الفكرة التوحيدية، وفق منهاج الرسل الكرام، الذين كانوا دعاة الفطرةِ الإنسانية الصافية طوال المسير البشري للتطلع والحضارة، دعاةً لكشف تلك الغمامات الملتبسة من القلق، والحيرة، والتذبذب؛ مثل لكريشيوس؛ الشاعرُ الرقيقُ المعذب، بنور التوحيد، وصفاء التوحيد، وبهاء التوحيد.

الفصل السادس عشر

طاعون العنف النفسي وتآكل الحضارة

يظل التوحيد دوماً هو القاعدة الصلبة التي يبني عليها الإسلام أنظمته في الحضارة؛ إعتقادا، وأخلاقا، وتعاملا، وتلك العلاقات السوية بين البشر، وذلك الطوق الدافيء كذلك، الذي يبتعد بنا عن قلق عالمنا اليوم، المليء بإنحناءاتٍ مزعجة، وترقباتٍ أحيانا غير واضحة المعالم، وشظايا من ضبابٍ يحجب عنا سمونا كبشرٍ حقيقيين، نهفو إلى المزيدِ من التطلع الإيجابي والمثمر.

وكما سلف، ينبني على كمال التوحيد، وجماله، وصفائه، ذلك البناء النقي، من قدرتنا على الصبر المحكم، والمواصلة الإيجابية في طريق الحياة، رغم العقبات التي تعترض حياة الإنسان، والتي في كثير منها تشكل تلك البؤر التي يتغذى منها وجع حضارتنا المعاصرة، بكل رونقها الجميل، والمثمر، والتواصلي، لكن، وكما مر بيانه، فإن هذا، وفقَ كلِ معطياتنا الحضارية الرفيعة في هذا الطور من مسيرِ التطلع البشري، أقول: لايجب لكل هذا الغطاء اللامع والمبهر حقا، أن يحول بيننا وبين الكشف الحثيث عن تلك النقاط غير واضحة المعالم، تلك النقاط الخفية التي تشكل إنسانا معزولا عن حقيقته، حتى ليكاد أن يصبح كذبة في عالمنا المعاصر اليوم؛ على ما يستطرد بنا الكاتب البرتغالي جوزيه ساراماجو[76]، لنصير منعزلين داخل كهف عميق، من عدم قدرتنا على التفكير، أو إنصاتنا لصوت الحقيقة الصافية، الفطرية، التوحيدية، تلك التي تقشع تلك السُتُر من التصورات الخاطئة، عن أنفسنا ووجودنا، لنصير أسرى داخل سجن حداثتنا المعاصرة، التي جعلتنا نبحث عن

[76] جوزيه ساراماجو، المنور صـ437، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر 2014.

الشفاء في كل شيء يمكن أن يثير شوقنا المتطلع، الحزين والشغوف، لنجد ولو راحة سريعة، وعابرة، في أسطورة ما، أو فكرة ما غامضة، أو إعتقاد ما مخاتلٍ خاطيء؛ على ما خلصت إليه السيدة أرمسترونغ.

ولايعني هذا قطعا؛ مع كل مرايا القلق التي تحيط بنا، أن ننفصل عن مناطِ حداثتنا اليوم، فهذا خلاف التطور التاريخي، والإيقاع الطبيعي، لحركةِ البشر، والتمازج الإنساني والحضاري، وخلاف منهجية القرآن الكريم التي جعلت إعمار الأرض وتفجير الطاقات البشرية، واستكشاف الحلول الإبداعية لعالمنا مطلبا قرآنيا عظيما، قال تعالى: **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**[77]، وهو ذلك المطلب القرآني الرفيع، المحفز للتقدم البشري، على كافة الأصعدة، وينبه تبارك وتعالى على الدور الحضاري للإنسان، باعتبار ثنائية الفساد والإصلاح، الفساد الذي يعمي العقل والبصر عن دور الإنسان الطليعي والمتحرر في الحياة، والإصلاح الذي يفعّل مبدءاً قرآنيا جليلا، قال تعالى: **ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين**[78].

ولوتأملت الآية السابقة، لبان لك جوهر المبدأ الذي كان في أول هذا الفصل، فالتفعيل الحضاري للدور البشري على الأرض؛ وفق آليات القرآن الكريم، يقوم على مركزيةٍ مطلقةِ البيان والدلالة، هي دعاء الحق جل وعلا، ودعاء الحق جل وعلا هو من خالص العبادةِ وصفوة رفعتها ودلالاتها، فقد قال نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم: الدعاء هو العبادة[79]، والعبادة هي الهدف الأسمى من الوجود البشري؛ معرفته جل وعلا، وتحقيق الكرامة الإنسانية القائمة على العقيدة الصحيحة فيهِ تبارك وتقدس، وربط الإنسان بخالقه؛ تبارك وتقدس، وفق منظومة شاملة، كُلية، متعددة الطبقات والشُعب، تسير على أجزائها مسيرة

[77] هود 61.

[78] الأعراف 56.

[79] أبو داود، السنن 1299، عن النعمان بن بشير.

الحضارة وأحلامها، وسموها، قال تعالى: **وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**[80]، ومن السهل عند جمع المدلولاتِ القرآنية الكريمة؛ أن تعرف أن مفهوم العبادة شاملٌ، منبسطُ المساحات، واسعُ الفضاء، يحوي كل ثمرة حِراكنا البشري الإيجابي؛ بشرطِهِ التوحيدي بالطبع.

تحقيق هذا الهدف الأسمى، وفق دلالات كتاب الله تبارك وتعالى، يصير هو تلك التقنية المتينة، ومن جملة أنظمة الإسلام الكبرى، التي يعالج بها داء حضاريا مستفحلا؛ نارَ القلقِ المعاصر وألمه، والذي أصبح لا يستثني فقيرا أو غنيا على ظهر هذا الكوكب، تبعا لكل دراساتِ علم النفس المعاصر[81]، وذلك لأن الأمر معلقٌ بطبيعة الوجود البشري، وسكينة النفس الإنسانية، وبحثها، وتوقها، ورغبتها الكبرى في الطمأنينة والرَوح الرُوحي، وهذا كله غاية بشرية شاملة، فمن ثَمّ؛ ووفقاً لمعطياتِ، وتقاطعاتِ واقعنا اليوم، تصبح الموجة عامة، وعاتية، وتتنفس بأنفاسٍ كبرى، وساخنة.

وفي الحديث النبوي؛ أن الصحابة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يوما: نراك اليوم طيب النفس! فقال صلوات ربي وسلامه عليه: أجل! والحمد لله، وطيب النفس من النعيم[82]، وهذ الحديث يشير إلى أن البؤرة الآنية التي تحيط بنا؛ مهما أن تكون، يظل التوحيد، والعقيدة الصافية، وكمال الإعتقاد والتصور، هو تلك الواحة الكبرى، والريانة، التي تروي عطشنا القلقِ المعذَب، إلى صفاءِ النفسِ، والروح، وتزيح تلك الحالة من الفراغ العاطفي، التي تولد ما أسمته الدوائر الثقافية، والفكرية، والتربويةُ في الغرب؛ بطاعونِ العنفِ

---

[80] الذاريات 56.

[81] أحمد محمد، علم نفس الشخصية صـ591، مكتبة الأنجلو المصرية 2016. وعبداللطيف حسين، الإضطرابات النفسية صـ125، دار الحامد 2009. وسعدي موسى، الاضطرابات العصابية صـ121، العبيكان للنشر 2016.

[82] ابن ماجه، السنن 2150، عن عقبة بن عامر.

النفسي[83]، الذي يبدأ من داخل النفس في أودية صحرائها المؤلمة، ثم لينتشر عبر المجتمعات لتفقد معاني التواصل، والحب المتبادل، والدفء الروحي الحقيقي، الذي لا يتحقق بكماله إلا عبر عقيدة التوحيد الصافية، مثلما بينتها آيات القرآن الكريم، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، تلك الحالة القاتمة والحزينة، الملتبسة والمحتارة، الراغبة في الكشفِ المنير، لكن وسط دربٍ مبهم مشتبك في المفاهيم، والأطروحات، والمعايير، حالةٌ من رثائنا، ومن تآكلِ الحضارةِ، واكتئابها.

[83] حبيب الله بابائي، جدلية النظر والعمل: في التأسيس الإسلامي لإلهيات الحضارة ص176، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي 2014. ومدحت مطر، تنامي ظاهرة العنف في المجتمع وعلاجها ص51، دار اليازوري 2019.

الفصل السابع عشر

مقاربات الهند ومسير الإشراق ونفي الإله

لو تأملت الحديث النبوي الآنف، الأخير في الفصل السابق، لوجدت أن المساق المادي للحياة النبوية لم يكن سهلا أبدا، بالحساباتِ العقلية، كما يقال، كانت الفترة النبوية فترة مشاق عظمى، وتحديات جليلة، والظرف الإقتصادي، والسياسي، والإستراتيجي للنبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، كان غاية في الدقة، وفي الحقيقة ومع تأمل السيرة النبوية الشريفة، من مصادرها التي لاتكاد تحصى، ستقف على عظم التحديات التي واجهها نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم، في سبيل التبليغ، وتغيير المنحى الحضاري والبشري نحو وجهته الصحيحة.

كانت المنطقة مضطربة قبل البعثة، وفي أوانها، ثم في خلالها، وكان التعاطي النبوي الكريم مع كل الأوضاع المحيطة به حكيما، رحيما، كيف وهو القائل: إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم[84]، صلوات ربي وسلامه عليه، وبتكثيف البحثِ، والقراءةِ، والإطلاع، من السهل أن يستشف الباحث المنصف، وفق قرائيةٍ قائمة على استصحاب المرتكزاتِ الحرجةِ لرحلة التطلع البشري، على مستوى المرتكزِ الإعتقادي التوحيدي، ثم المرتكزِ الأخلاقي السلوكي، أقول: من السهل أن يستشف الباحث والمؤرخ، كما خلُصَ مؤرخون عدة من إعتقاداتٍ وجنسياتٍ مختلفة، هذا الوضعَ المعقدَ قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، على مستوى الإستراتيجي العسكري، والثقافي المهتز، والعقدي الغامض، والوجودي المرتبك،

[84] أبو داود، السنن 7، عن أبي هريرة.

وطبيعة التعاطي الإنساني مع مشكلات الهوية، وتحقيق الذات، مما جعل العالم في حالة التطلع، والتشوف، والإستعدادِ والتهيؤِ، ثم القبولِ، لأنوارِ البعثة النبوية الكريمة.

كانت المنطقة والعالم ممزقا بين الرومان والفرس، والحروب العسكرية على أشدها، والأحوال الإقتصادية للولايات الخاضعة لحكم كلٍ؛ تحت أدنى مستوى لها من كرامة العيش والإنسانية، مع الجدليات الطويلة التي فصَلت رسالة سيدنا المسيح عليه السلام إلى شطرين؛ روماني، وبيزنطي، إثر المجامع الكنسية التي عُقدت طوال القرون الماضية، قبل بعثة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، يضاف إلى ذلك السقوط العربي الداخلي، في مضامير العقيدةِ، والوثنيةِ، على ما نقل ابن الكلبي وغيره[85]، من مظاهرِ التمزق العقائدي عند العرب قبل البعثة النبوية الكريمة، ولو أوغلنا شرقاً، لم تكن الحالة أحسن، فقد كانت في الهندوسية الهندية بوارق توحيد صغيرة مشرقة، تنطفيء وتذهب، وفي آخر الأمر عمت الشركيات والوثنيات، حتى ذهب بعض الباحثين في تاريخ العقائد لشبه القارة الهندية أن أسماء الآلهة الهندية الكثيرة تحتاج إلى معجم ضخم في مجلد كبير.

ممكن؛ لأجل هذا، انشقت البوذية، والتي هي أقرب إلى الكيان الفلسفي الصوفي منها إلى عقيدة كاملة الأركان، تجيب على أسئلة الإنسان الكبرى والمحيرة، لتعم نزعة الهروب من العالم ومحاولة الحصول على الإشراقِ النفسي والباطني بغض النظر عن وجود إله من عدمه؛ وإن كانت العدمية النافية أقرب إلى النصوص المنقولة عن بوذا نفسه، لكن وبتناول مفردات المجتمع الهندي وقتها، ووسط سيطرة الفساد المالي والإداري،

---

[85] ابن الكلبي، كتاب الأصنام ص56، دار الكتب المصرية 1995. والألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب 2\195، دار الكتب العلمية 2009. وعبدالعزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ص345، مكتبة العبيكان 2000. ومحمد السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص436، دار الكتب العلمية 2016. وشكران خربوطلي، سطور منسية في تاريخ الحجاز ص73، مؤسسة رسلان 2011.

والمفاهيمي والعقائدي، والشك في طبيعة الآلهة الوثنية؛ وهو الشك النبيل المبرر، كما حدث عند أفراد من العرب قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وكما كانت دعوة إبراهيم عليه السلام من قبلُ في تاريخ الشرق الأوسط الأقدم، وكما حدث أيضا عبر الزلزال العقائدي العنيف في أثينا، ثم لاحقا في روما، التي كانت المدن الإيطالية الأخرى حولها تحترق بالثورة وبالرغبة الإنسانية الكبرى في التحرر، من هيمنة الفساد المتغلغل في مجلس الشيوخ الروماني، وخراب طبقة النبلاء المسيطرة على مفاصل الدولة طوال قرون، والتي هي أسرٌ محددة لم تتغير قط.

أقول: بتأمل النزعة البوذية يظهر لك أنها ردة فعلٍ عنيفة تجاه طوفان الآلهة الهندية القديمة، وتظهر النزعات الشكية في نصوص وأشعار كثيرة منقولة من تاريخ الهند القديم، ويظهر تمزق إضافي؛ عندما تظهر الجينية القديمة، مذهبٌ هندي إشراقي، لتكون المحصلة حدوث إنشقاقات وسط العقيدة الهندوسية الأصلية المتداولة من عمق تاريخ الهند، لعوامل الشك في طبيعة الآلهة، وحقيقة تطلعنا الإنساني مع هذه النُصُبِ المدعومةِ بفساد وثراء طبقة الكهان والأثرياء؛ الثيمة الثابتة عبر مسيرة الحِراك البشري، وليصل الناس إلى قناعة مرحلية؛ عبر البوذية والجينية وغيرها من إنشقاقات العقيدة الهندية: أنه يمكننا الخلاص من عذاب هذا العالم، والتحرر، والإكتشاف، وبدون الحاجة إلى آلهة، طالما كانت هذه الآلهة سبب شقائنا العقلي والنفسي، من ثم كانت البوذية والجينية وغيرها من فلسفات الهند القديمة هي محاولة للإشراق البشري والتحرر الروحي من دون إله، لكنه ذلك الإله الذي خلقته المخيلة البشرية، ليصبح إله عذابها وآلامها، وحاجزها عن أحلامها، وتطلعاتها، لا الإله الحق، تبارك وتقدس.

الفصل الثامن عشر

سر السعادة والقدرة على تغيير العالم والتاريخ

عوداً إلى حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، الذي سبق تخريجه في الفصل السادس عشر، وقال فيه حبيبنا صلى الله عليه وسلم: طِيبُ النفس من النعيم. مع كونِ، وكما تم العرض في الفصل السابق، أن الظروف المحيطة بالعهد النبوي، ومع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، لم تكن سهلة، ولم تكن، كما قلتُ بالحسابات العقلية، محفزة لما دل عليه الحديث النبوي الشريف، من كمال الإنبساط، وحب الحياة، وقوة الموقفِ والثبات، رغم التحديات الهائلة أبان الدعوة النبوية الكريمة.

وهذا يربط مابين موقفنا الحضاري الآني، وبين مسيرة تطلعنا القديمة وحتى اليوم؛ تلك المشتبكات الكثيرة، من الحلم والألم، والسعادة والشقاء، والتعاسة والإيمان الشديد بأنه يمكن التحدي والوقوف أمام الحائط العملاق والضخم الذي يسد ذلك الأفق الأكبر، وبين الإفادة النبوية الشريفة، التي نبهنا النبي صلى الله عليه وسلم فيها؛ تعريضا وترميزا، أن سمو النفس، والعلو الروحي، والتفوق السلوكي، وكمال التحدي لكل دروب الآلام العملاقة في هذا العالم، إنما هو بشيء واحد فقط.

وفي الحقيقة، البحث هنا حول المطلقات، لا النسبيات، أعني يمكن أن تكون هناك حالة عابرة تمر بالفرد؛ وهذا مشهود ومختبرٌ طوال التجربة الإنسانية، حالة عابرة عمومية بشرية، من سعادة ومحبة وسمو، وشغف بالحياة، وإيمان بأنه يمكن صنع فرقٍ قوي، وقياساً إلى أهداف الإسلام الكبرى، وغاياته العظمى، وأنظمته في التفسير والتأويل، والتعاطي الكوني والوجودي، والإنساني، ضمن الإطار الأشمل والأكبر؛ برأيي، يعتبر هذا جزءاً لا

كلاً، مما يريد القرآن الكريم تنبيهنا إليه، وأشار إليه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم؛ في حديث عقبة بن عامر الآنف؛ وغيره.

وببساطةٍ، يمكن سبر هذا المدلول من حياة النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، ومن حياة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، إذ قد يبرز سؤال مباشر وبديهي حول ذلك المقصود من طِيبِ النفس؛ الذي أشار إليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكأن سحابة لطيفة تظلل حياة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، مع كل الفقر، والجوع، وانعدام المنطق المادي للحياة كما يعرفها التاريخ، ونعرفها اليوم، بمعاييرها التي تقاس عليها سعادة البشر، من هناءة العيش، ورفاه الأمور، مع كون المحيط الدولي أبان العهد النبوي كان ينعم بذلك الرفاهِ والإقتصادِ المريح، كما ترى في قصة كعب بن مالك الأنصاري[86]، يوم أن طلب منه ملك غسان أن يفد إليه، ليرى الدنيا ورونقها، وجمالها ورفاهيتها، بدل الوضع الدقيقِ والحدِيّ الذي كان يعيشه كعب بن مالك والصحابة الكرام، والذي تنعدم فيه حتى ما لا يمكن تصوره، كما قال النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه للصحابة رضوان الله عليهم: أوَ لِكُلِكم ثوبان؟[87]، فتأمل.

فما هذا الذي يجعل القلب النبوي الكريم، وقلوب الصحابة رضوان الله عليهم، ثابتة، سعيدة، راضية ، وقورة وهادئة، يعرف هذا مَن سبر سيرتهم العطرة، وكيف كانوا ينسلخون من أموالهم، ليلحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكيف كان الواحد منهم يرفل قبل إسلامه في الأموال والعطور وشهي المأكل والملبس، وبعد أن يُسلم ويلحق بالدعوة النبوية الإصلاحية، لايكاد الناس يجدون له بعد موته كفناً يُدرج فيه.

---

[86] البخاري، الصحيح 4179، عن كعب.

[87] البخاري، الصحيح 354، عن أبي هريرة.

أقول: ماهذا الذي يجعل تلك المجموعة البشرية من الناس ترضى بكل ضنك الحياة، وقسوتها، وآلامها، وحياةٍ بمعايير السبر التاريخي الحضاري، ومعاييرنا نحن، بل ومعايير كل التجربة البشرية ومفرداتها، هي حياة صِفرية تامة، بل كان الناس زمن النبي صلى الله عليه وسلم يسقطون على وجوههم من فرط الجهدِ، وقلة الغذاء[88]، وطوال أوقاتٍ طويلةٍ من حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان الصحابة يقولون: كنا نعرف في صوت النبي صلى الله عليه وسلم الجوع[89].

لاريب أن ثمة شيئا ما مغايراً، مختلفاً، يجزم به العقل، وتتنسمه النفس، وتفرضه البداهة الإنسانية، حول تلك المجموعة البشرية، الصغيرة جدا، أو لعلها لاتكاد تسوى شيئا إذا قيست بالممالك الفارسية أو الرومانية البيزنطية حولها، التي كانت لها الحضارة العريقة، والإقتصاد القوي، والحياة المريحة ولو جملة لرعاياها، مع ذلك إستطاعت تلك المجموعة البشرية الصغيرة جدا، أن تعيد صياغة التاريخ، وتغير منحنى التجربة البشرية، وليعبر سانت موس، المؤرخ البريطاني وأستاذ التاريخ البيزنطي بجامعة أكسفورد، بعد استعراضِ الإحتكاك الفارسي-الروماني البيزنطي، الذي ربحه البيزنطيون: أن ذلك كان آخر نصرٍ أحرزه العالم القديم[90]، ليبدأ العالم الجديد، الآخر، الذي صنعه نبيٌ كريم، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضوان الله عليهم، بذلك السر البسيط والبدهي، والفطري، الذي هو في عمق التجربةِ الإنسانية، لكن، تغشاه الغواشي، وتحجبه الحجب، سر التوحيد الصافي والنزيه، والبسيط، السر الذي يجعل النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام، رغم رِقة حالهم، وضعفهم الذي لا يكاد يتصور، من الناحية المادية، يكوِّنون تلك المجموعة البشرية الصغيرة التي تعيد صياغة العالم، وتحرك التاريخ نحو مجرى آخر، مختلف، مذهل، وإنساني،

---

[88] البخاري، الصحيح 6932، عن أبي هريرة.

[89] البخاري، الصحيح 3416، عن أنس.

[90] سانت موس، ميلاد العصور الوسطى ص236، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1998.

ومتسامح، عالمي، وشامل، ومتحرر، فالتوحيد الصافي على مبدأ القرآن الكريم، هو الذي تطيب به النفوس، وتتحرر به الفطرة السليمة من أثقالِ العالم المادي، التي تشمل حتى التصورات المزبجة بأفكارنا المشوشة، لتصبح السعادة في المعنى الأسمى، لا المادةِ العمياء.

الفصل التاسع عشر

انطلاقنا من الداخل واجتياحة الضوء المشرق

لا يخفى إذن ذلك الحث القرآني ثم النبوي، والذي هو جوهر أصيل في مدلول نصوص الإسلام، على التأكيدِ على حقيقة توحيد الخالق، باعتبارها المنظومة الأولى التي يقوم عليها بناء الإسلام الحضاري، ومن ثم تتفرع عنها أفرع أخرى تشمل الحِراك البشري، وتطبيقات العدالة، والتشريع، والحكمة، والرأفة، والرحمة، وتحقيق التواصل الإنساني الإيجابي، فيما بين الفرد ونفسه، وبين الفرد ومحيطه الأسري، أو العائلي، أو المجتمعي، والعالمي.

وفيما يتعلق بتحقيق السلامة النفسية، والرؤية الصلبة للحياة، التي؛ وكما مر العرض حسب ما كان ممكنا، وعبر محاولاتٍ للسبر من عمق التاريخ الحضاري، وتطلعها، وأحلامها، لم نكن يوما إلا وثمة ظاهرة من القلق الإنساني، الذي يجعله علماء النفس المعاصرون؛ الأساس لكل الإنحرافات الشخصية وخصائص الإضطراب المعاصر، والذي يحول دون إكتشافنا الصحيح لحقيقة أنفسنا والغاية النبيلة من الكون، وعِلة الحياة بالأصل، وهذا المرجح القوي، الذي ينثر من الكون خلقا، وعِللا، وأنظمة فائقة الجودة والإحكام، بعد أن لم يكن ثمة شيء؟

وفي الحقيقة، وكما مر من حديث النبي الكريم السابق، فإن نعيم النفس لايكون متصنعا، أو حداثة مفرطة يمكن الظن أنها ستحقق لنا الإشباع الآخر، أو البعد الآخر، الذي لا يزال يبحث عن إكسيره الجميل والأسمى، هذه الحداثة التي صنعت في طرف منها؛

إنساناً ذا بعد واحد، حسب التعبيرِ المعبِر الذي نحته الكاتب الأمريكي هربرت ماركوز[91]، يتحرك ضمن هذا البعد فقط، يحاول فيه أطياف حياته الشاردة، وتمضي عليه الأيام وهو في حالة قفزٍ من أفق إلى أفق، ليكتشف دوما أن ثمة أفقا أكبر مفقودا، هذه الحياة المعاصرة التي جعلت الوجهة دوما محددة بقدرتنا على صنع كل ماهو إستحواذي واستهلاكي، وفق دائرة لاتكاد تنتهي من الإلغاء التام للبعد الأكبر، والأجل.

وبالطبع، لاينظر الإسلام إلى القلق الحضاري، عبر مسيرة تجربتنا البشرية، وفق منظومة إصلاحية مادية، كما تحاول بعض الإتجاهات وضع الأمر ضمن توجيه جاف ومصطنع، وتقني كما يقال، إذ الأمر أكبر وأقوى، وكلما سارت الحياة الى الأمام سيتعرف الإنسان على ماهو أعمق، بل ويصير القلق أدق وأشمل، وستلح عليه الأسئلة، وستصبح الإجابات البسيطة التي تحاول تسطيح الحياة، وفق بُعد واحدٍ فقط، غير قابلة للأخذ بها.

تأسيسيا، يبني الإسلام المنهجية الشاملة، فكما سبق، تم بيان كيف أن التوحيد نفسه يقوم على عُمد قرآنية محددة وشاملة، تنبه على الطريقة المثلى للتعاطي العقلي مع طبيعة الوجود الضخمة، المركبة، والمعقدة، وليصبح التبسيط إلى هدف عدمي، أو عِلل عشوائية، أو حيوات غامضة منثورة من فوضى الكون، أمرا خارج سياق العقل الرشيد، الذي يُعلي من شأنه القرآن الكريم، قال تعالى: **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالِمين**[92]، فالمبدأ الإبراهيمي يوجه إلى لا عقلانية من يدعي عقلانية كونٍ أبتر، أحمق، منفصلٍ عن الغائية والهدف.

---

[91] رائد جميل، الفلسفة في الفكر الإسلامي صـ102، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 2012. وعبدالوهاب المسيري، الإنسان والحضارة صـ113، دار دوِّن 2018. وحفناوي بعلي، الترجمة الثقافية المقارنة صـ243، دار اليازوري 2016. وعبدالغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت صـ62، مؤسسة هنداوي 2021.

[92] الأنبياء 51.

فمن هنا، وكما مر من آيات كثيرة من الكتاب العزيز، ينطلق أصل التوحيد الأكبر في القرآن الكريم، صافيا، معظما، ليصبح قمة العلم، وهناءته، كما في حديث أبي بن كعب، أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله عن أعظم آية في القرآن الكريم، فقال أُبي: **الله لا إله إلا هو الحي القيوم**[93]، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: والله! ليهنِكَ العلم أبا المنذر[94].

وماذلك إلا لأن آية الكرسي تحتوي التقريرات، والإشارات، والتأصيلات، لقضية الإيمان بالله جل وعلا، وصفاته، وإفراده بالتوحيد المطلق، الذي لايقبل خدشاً البتة، لأنه مرآة الإسلام الكبرى، وقيمته الأسمى.

وابتداء من داخل النفس البشرية، التي قد تكون متوحِدة في قلقها وهواجسها، يكون الإنطلاق حسب المفهوم والمرصود من كليات الإسلام، فمن الداخل يبدأ نور التوحيد، ليشع بعد ذلك إلى الأسرة، والمجتمع، والعالم أجمع، باعتباره؛ حسب القرآن الكريم، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، قضية مسيرنا الحضاري العظمى، والكبرى.

تفصيليا، تحوطنا الحياة اليوم، بصدماتها الدائمة، ويلتفت الإنسان ليبحث عن مأوى، يكوّن ترسيخا متينا للتصور الإعتقادي الصحيح عن وجوده، وكونه، والغاية التي تعلل معنى الحياة، بكل جمالها؛ رغم كل آلامها، وإثرائها المدهش، وعمقِ العلاقات الإنسانية، وكل هذه الباقة من القدرات المدهشة في الكائن البشري، والتي ليست صنعا من عدم، أو إحتمالا لطائرة بوينغ جمعتها رياح الوجود الهوجاء في ساحة كونٍ عدميّ، ومطفأ من الغاية والتعليل؛ على ما يقول البعض.

وفي الحقيقة، وعبر جوهرة التوحيد المنطلقة من فضاء القرآن الكريم، تأخذ النفس البشرية ألقها، وسكينتها، وروعتها، وبهائها، لتسمو وتسمو؛ بفضل الإيمان التوحيدي

---

[93] البقرة 255.

[94] مسلم، الصحيح 1396، عن أبي.

المتين، فوق جسور الألم، والقلق المعاصر، وتوهان العقائد والتصورات، وفقدان البوصلة في طرف من مسير حضارتنا اليوم، الممتزج مع كل منجزها المدهش، والذي هو قطعا محصلة المسير البشري طوال قرون وقرون من التمازج الحضاري، والإلتقاء الإنساني، حول قواعد الحلم البشري المشترك، وحول رغبتنا في تفعيل سر الحياة الإنسانية النبيل على سطح هذا الكوكب، فعبر إستقراء تطور الحضارات البشرية، لايمكن الزعم قطعا بفضل حضارة على أخرى؛ وهذه إرادة إلهية كبرى لصنع التمازج البشري، لإعطاء الحياة والحضارة صبغتها التوحيدية، على مناطِ المنجز الإنساني.

واستكمالا، وتقعيدا على ماسبق؛ في هذه الجزئية، وحسب منهج القرآن الكريم، وسيرة وسنن النبي صلى الله عليه وسلم، تحوز ظاهرة القلق علاجها الشافي، ودوائها الأكبر، وترياقها المنير، وفق دلالة الإيمان، وتحقيق المقصد والغائية الإنسانية على منهج الرسل، القائم على الدعوة إلى التوحيد، المركوز هنالك في ضمير البشرية، رغم ظلال التصورات المخطئة والملتبسة، فبإشراق نور التوحيد على النفس، يكتمل وجودها، وتسمو حقيقتها إلى الدرجة التي لن تنتهي، بل ثمة درجات أخرى بعدها، ولتصبح خناجر القلق وسهامه المؤلمة طيفا شاردا محطما بإضاءة التوحيد المبجلةِ القاطعة، ولينتشر النور، والحلم المتطلع إلى الخارج، بكل رفعته، وعلوه.

الفصل العشرون

التكامل الإعتقادي ومنظومة الأخلاق التوحيدية

لما كان مبدأ الإستنارة النفسية في الإسلام، يبدأ من عقيدة التوحيد، لتتفرع عنه كافة أبنية ومنظومات الإسلام الأخرى، على مضامير الأخلاق، والتواصل الإنساني، وقبل كل شيء بالطبع صناعة تلك الراحة النفسية، المطمئنة إلى نور الإيمان، وغاية وجودها، وقدرتها على الوقوف في وجه تحديات المصير، والعالم، والتغيرات الحادة التي يمر بها العصر، وفق تحولات السياسة، والإجتماع، والاقتصاد، وتلك الأنساق المختلطة من بُنى ثقافية، بعضها مضطرب.

أقول: من مبدأ تفعيل الإستنارة النفسية الداخلية في الإسلام، وفق ما تقرر سابقا، على هدى التوحيد، وثمرات الوحي الكريم، يكون حينها الإنطلاق لإصلاح الخارجِ المحيط، ذلك الذي يشمل الأسرة الصغيرة، والمنطقة والحي الصغير، والمدينة، ثم الأقاليم، والدولة، وصولا إلى عموم السياق الإنساني، في تفاعله التام، وروعته الجميلة.

وفي الحقيقة، ليست هذه إلا مرحلة عميقة من مراحل الإسلام الحنيف؛ أعني القدرة على البناء الداخلي النفسي وتجاوز العقبات، والأوهام، والمخاوف، والشركيات، وغيرها مما هي بالأصل عند العارفين بالله تعالى؛ من قوادح التوحيد وأدرانه، والتي بسببها تنقلب التجربة البشرية، إلى رحلة مؤلمة، وغاية مزججة بالمخاوف، وأرضٍ جرداء من التعب، والعنت، والكسل العدمي، والهبائي.

وفي الحديث النبوي الشريف: يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعِموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصَلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام[95]، وفي الحقيقة وعند التأمل الدقيق، لفحوى هذا الحديث الشريف، ستخرج أن هناك قسمان متلازمان في السرد النبوي؛ على صاحبه أزكى صلاة وسلام، وأن كِلا القسمين يحوي تقعيدا وتأصيلا منيفا وباذخا، وتندرج جزئيات كثيرة تحت عمومياته الكلية، كيف والنبي صلى الله عليه وسلم يقول؛ موضحا سِعة مشكاة النبوة الدلالية: بُعِثتُ بجوامع الكلِم[96].

أما القسم الأول فمختص بقواعد الإيمان، وإليه الإشارة بقوله: تدخلوا الجنة، ودخول الجنة، وفق منهجية القرآن الكريم، ولما كانت مآلا بشريا نهائيا، تتجلى فيه بالأصل غائية الكون، وتحقيق معنى الوجود لاعبثيته، يكون دخول الجنة مبينا على الإيمان بالله وتوحيده، وعلى ما يليق به من كمال الوصف وتحقيق التعريفات، وفق نصوص الكتاب العزيز ثم سنة النبي صلى الله عليه وسلم، لتكون النهاية البشرية، مبنية على مقدمة منهجية، عقدية، وإيمانية.

فالقسم الأول إذن من الحديث النبوي الشريف الآنف، يحمل تأكيد المنهج التوحيدي، لتأكيد نهاية المصير الإنساني السعيد، وفي الحقيقة، وعبر مسيرة الحضارات البشرية؛ لم يكن التطلع الإنساني نحو ذلك العالم البعيد، الآخر، الجميل، اللامرئي، الذي نجتمع فيه مع أحبتنا الذين غادرونا من سنوات وسنوات في الدنيا، ويلقى الطيب فيه جزاءه من خالقه جل وعلا، أقول: لم يكن هذا التطلع تخلو منه عقيدة بشرية ما، وإن دخلتها دواخل الشرك، والوثنية، وغمامة رمادية من تصورات مبعثرة ومحتارة، تلك الفطرة الإنسانية

---

[95] الترمذي، السنن 2522، عن عبدالله بن سلام.

[96] البخاري، الصحيح 2844، عن أبي هريرة.

المركوزة في الضمير البشري، بوجودنا الآخر، البعيد، النهائي، والإكتمالي، لما لم يكن مسير الإنسان عبثا وخرابا.

ويأتي القرآن مقررا لتلك الحقيقة القديمةِ قدم البشر على هذا الكوكب، وليزيح عنها غشاوات التصورات المختلطة، وأدران الشرك المخالف لمنظومة الإسلام التوحيدية الصافية، قال تعالى: **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**[97]، وفي السنة النبوية الشريفة هذا التقرير أيضا، الذي يشير إلى الإعتداد بالضمير الإنساني في حقيقته وصفائه، وإلى وظيفة الإسلام الكبرى، والعظمى، في تصحيح المسار، وتبيين قواعد المنهج التوحيدي السليم، وإزاحة الأخطاء والغبش والتصورات القاتمة الرمادية، فيقول النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه: إنما بُعِثْتُ لأتمم صالح الأخلاق[98].

فلم تكن الحضارات الإنسانية حتى في حالة خرابها العقائدي تخلو من المآل المتمثِل بصورة الكمالِ للمصير البشري بعد الموت، قد تعصف رياح عدمية ترى أن المسألة ليست إلا موتا وانغماسا في طبقات التراب وراء أجيال وأجيال من البشرية الذاهبة، لكن، وحسب إطلاعي، تظل تلك ظاهرة بينة الوضوح في التاريخ الإعتقادي البشري، أعني المآل الصالح، الجميل، النهائي، الذي يعطي الوجود الإنساني معناه وحقيقته، وغائية مساره، الجنة، بمصطلح القرآن الكريم، قال تعالى: **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا**[99]، بالطبع بالشروطِ المنهجيةِ القرآنية، بداهة.

عليه، يبني القسم الأول، تحقيقا قطعيا، قبول صالح الأعمال بتحقيق مناط التوحيد لحيازة النهاية الإنسانية الكبرى، التي تعطي الحياة الإنسانية المعنى والهدف، بل وتعطي وجودنا نفسه معنىً وحقيقة، ثم لتصبح مسيرة العمل الإنساني كلها أجرا وثوابا وجزاء،

---

[97] المائدة 48.

[98] أحمد، المسند 8788، عن أبي هريرة.

[99] الكهف 107.

طالما هي منطلقة من قاعدة التوحيد، ومنطلقة أيضا من مبدأ العون، الذي حققه نبينا الكريم بقوله: والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه[100]، ولو تأملت هذا الحديث لوجدت الإعانة الإلهية، قطعا مبنية على حقيقة التوحيد، وإلا لم ينتظم بناء الإسلام العقائدي ومنظوماته الراسخة، وهذا محال، قال تعالى: **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا**[101]، وقال تعالى: **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**[102]، وقال تعالى: **تلك آيات الكتاب الحكيم**[103]، فالإتساق، والإحكام، والحكمة، كليات، ومباديء معيارية، لمدلولاتِ ومنظومات القرآن الكريم.

[100] مسلم، الصحيح 4996، عن أبي هريرة.

[101] النساء 106.

[102] هود 1.

[103] يونس 1.

الفصل الحادي والعشرون

في التأسيس الأخلاقي لقيم الفطرة الإنسانية

تقدم في الفصل السابق أن حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، الذي سبق بيان تخريجه، يشير في قسمه الأول، أو دلالته الأولى، إلى قاعدة التوحيد التي تنبني عليها منظومات الإسلام الأخلاقية، تلك التي تؤسس قواعد المجتمع على الرحمة، والتكافل، والتعاضد، والتزكية والإرتقاء النفسي، والكل مقرونٌ بحقيقة التوحيد، الصافية، والكبرى، لما كانت هي الأصل الأصيل الذي تستند عليه أعمدة الحضارة في نصوص القرآن الكريم، ثم بالطبع تالياً منهجياً، تستند عليه منظومات الأخلاق التي تضبط سير المجتمع، وتحكم التجربة البشرية نحو المزيد من الإرتقاء الإنساني، والتعاطي المنفتح مع الآخر بعيدا عن نفعية تامة، لا أرى أنه يمكن الإنفصام عنها، متى فقدت الأخلاق معيارية الإيمان بالله تبارك وتعالى.

عليه، فالحديث النبوي الشريف الآنف، أشار إلى جملة من الأخلاق الإجتماعية، والمواضعات الإنسانية الرؤوفة، والرحيمة، وإلى الحث على مباديء التكامل الأسري والإجتماعي، بل وإلى إفشاء السلام، المتضمن للسلام النفسي الفردي، وعلى مستوى المجتمع والدولة، ثم على مضمار العالم وكوكبنا ككل.

لكن، لا يستقيم هذا الفهم، وحسب الكليات الكبرى المستقاة من كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم سيرة أصحابه وتابعيهم بإحسان رضي الله عنهم أجمعين، وأجزل لهم مثوبة العطاء، أقول: لايستقيم هذا البناء الأخلاقي الذي دعا إليه القرآن الكريم

منهجيا، إلا بالإيمان بالله وحده لاشريك، بلا ند أو مكافيء، وفق توحيدية كاملة الأركانِ غير منقوصة ولامبتورة، تقوم عليها المنظومات الأخلاقية والتشريعية القرآنية.

وهذا واضح وكما سبقت الإشارة، أن الحديث الشريف وفي طرف من إشارة دلالته، يوضح أن هذه المنظومة الأخلاقية إنما هي منوطة بكمال الإيمان بالله تعالى، ولقائه، واليوم الآخر، لما كان هذا كله أساسا معياريا لقبول ولتحقيق معنى السلوك البشري وفق دلائل الكتاب العزيز، ثم سنة رسولنا صلى الله عليه وسلم.

وفي الحقيقة، من السهل الإدعاء أن السلوك الأخلاقي البشري يمكن أن يكون في طرف منه، مفصوم الصلة بمنهج التوحيد وعقيدة الأنبياء، مما هو بالأصل الفطرة الإنسانية السوية التي تقدم بيان تقريرها من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فقيم التكافل والرحمة، والتواصل الإنساني، والامتزاج الحضاري المعرفي والثقافي، وذلك الشغف البشري إلى معرفة الآخرين المختلفين عنا، مما هو عاطفة وفطرة إنسانية بحتة، أقول: هذا مما لايمكن إنكاره لفرط البداهة البسيطة فيه، ولأنه مما تحكم به العقول السليمة، والفِطَر الصافية التي عممها ربنا جل وعلا في عموم خلقه، قال تعالى: **وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها**[104]، فثمة في زاوية ما في أستار الضمير البشري، تلك البؤرة المضيئة الحلوة، الكريمة بالفطرة، الجميلة بالخلق الإلهي الرائع والمدهش، المحبة قطعا للمساعدة، والتآلف، والتعرف على الآخرين، والتواصل معهم، والرأفة والرحمة على الإنكسار البشري الذي قد يصيبنا جميعا في دروب الحياة الوعرة، قال تعالى: **الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين**[105]، وقال تعالى: **فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم**[106]، ففي الآية الأولى ثمة تعميما، وفي الآية الثانية ثمة تخصيصا

[104] آل عمران 83.

[105] السجدة 7.

[106] الروم 30.

أو بيانا لعموم ماهو من إحسانِ الخلق، والقرآن الكريم واسع الوجوه، بحرٌ لا متناهٍ من الدلالات، قال تعالى: **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء**[107]، فتأمل.

والمقصود أن الطبع الإنساني السليم، بلِ الحلمُ الإنساني السليم، والتطلع البشري المتقد، نحو الحب، والرحمة، وشمول العاطفة، رغم غبش دينٍ ما أو خلل التصورات، فيه تلك اللطيفة الحلوة، من رغبتنا في المساعدة والتواصل الإنساني، ورعاية الضعيف وإعانة المحتاج، على ماهو فحوى الوجوه الواسعة من حديث عبد الله بن سلام الآنف، وهذا من دلائل الواقع؛ أعني عمومية الفِطرة الإنسانية المحبة للمساعدة وفعل الخير، مما هو مشاهد ومقروء عبر الواقع المعاصر، ولايحتاج إلى كثير استدلال أو بيان لشيء ما غير واضح، بل هو أوضح من الشمس في توقد النهار.

لكن؛ وكعادة القرآن الكريم الإصلاحية، ومنزع الإسلام باعتباره الحركة التصحيحية الكبرى عبر ثورات التاريخ البشري، يكون البناء دوما على أصل الفِطرة السليمة، ومخاطبتها، والحث على إزاحة الأستار الكثيفة التي تغطي على مرآتها الصقيلة، التي تفسدها الآراء السائدة، والإنغماس في متاعب الحياة أو حتى ملاذها وأهوائها، أو حتى السيطرة اللامحسوسة لمنظومات المفاهيم والتصورات السائدة، التي تتسلل إلى النفس والمجتمع خِلسة بلا تفكير، فقط بمجرد التناقل المجتمعي والتصديق القيمي لهذه التصورات بغض الطرف عن صحيحها من سقيمها، من ثم كان التتميم والتكميل قاعدة قرآنية راسخة تتعاطى مع المعطى الحضاري، القيمي، والأخلاقي، والتصوراتي، وفق منطلقين: منطلق البناء على الفطرة السليمة، ثم منطلق التصحيح لهذه الفطرة السليمة متى حصل خلل أو تشويش، قال تعالى: **وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته**[108]، وقال عز من قائل: **ثم آتينا**

---

[107] النحل 89.

[108] الأنعام 115.

موسى الكتاب تماما على الذي أحسن[109]، فهذا التكميل، والتتميم، الذي يحيط برسالات الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم، يكون من جهة هذين المنطلقين الآنفين، وربما غيرهما كذلك، إذ وكما سبق القول، فالقرآن الكريم بحرٌ لانهائي الدلالات، وفضاء لايكاد العقل يسبر أبعاده، المدهشةَ، والجميلة.

[109] الأنعام 154.

الفصل الثاني والعشرون

الأجنحة المتراصة وتحقيق الثابت البشري

مر القول في الفصل السابقِ أن التعاطف الإنساني، وفعل المساعدة، والرغبة في احتضان هذا الآخر الضعيفِ والكسير، المتطلع إلى الأخوة الإنسانية العامة التي تنتشله من مرضه، أو فقره، وتضيء عليه شيئاً من عتمة الحياة، التي قد تعتم علينا في لحظة ما شاردة، حزينة، لها حكمتها الكاملة، ومقتضاها الإلهي النبيل، والجليل، والعظيم، رغم الشوك الحاد، والنِصال المؤلمة المحزنة، وتلك البحار التي قد نخوض فيها من آلام تجاربنا البشرية على هذا الكوكب الجميل، والمهيب؛ رغم كل ماسلف، تظل الحياة جديرة بالإبتهاج والإحتفاء.

أقول: مر أن التطلع إلى هذا التكاتف الإنساني العام خصيصة في البشر، ومما هو منشأ السلوك الأخلاقي الفطري السليم، وتلك الروح التي لايمكن إنكارها، إلا في حالات التمزقِ التام، التي تعتري التجربة البشرية، لتتحول إلى إطار نفعي قاسٍ وبارد، يقتات على ألم الآخرين، ويعبث في مستنقع الحرمان البشري، ليحقق أهدافه التطلعية التسلطية، وهذا منحنى تاريخي وحضاري متصل، لايمكن إنكاره بالطبع، وفي كل عصر تجد تلك البؤرة النفعية من طبيعة الحِراك البشري، التي تتكسب من خراب البشر، والسيطرة الأوليغاركية المفسِدة، والفاسدة.

هذا، والدافع الفطري السليم هو قاعدة الإسلام التي يبني عليها كما تقدم، لأن الفطرة قد يحصل عليها التشويش، وتعرض لها العوارض المفسدة، تبعاً لطبيعة الحياة البشرية وتقلباتها، حيث يحصل التغبيش على مفاهيم التوحيد إبتداء، ثم مفاهيم السلوك الأخلاقي

والتواصل الإنساني، ومع ذلك، ومما هو مرصود من الواقع المعاصر والتاريخ؛ رغم كل الضواري القاتلة التي تحاول اغتيال الفطرة السليمة التي كرمها ربنا جل وعلا، لكنها تظل منيرة، قوية، متأهبة للخروج والتحدي، وتلك حالتها المزدوجة: من الوجود، والنقصِ كذلك.

وحديث عبد الله بن سلام رضوان الله عليه، وعلى كل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم؛ الذي تقدم تخريجه في الفصل العشرين، يشير بالإيماء إلى هذه المحورية الدقيقة، العظيمة، والشديدة الحساسية من دين الإسلام، حيث تتوازى المحاسن الأخلاقية، مع التأصيلات الإعتقادية، ولامكان مطلقا للفصل بينها في دين الله تبارك وتعالى، إذا هي الخاصية الجوهرية والقطعية من دين الإسلام، وهي روحه، وحقيقته، ووجدانه، وقلبه النابض الفتي، نعم، تأتي تقريرات الكتاب والسنة على الإعتداد بذلك الجمال البشري العام، بل والتكريم البشري العام، المدهش والرائع، والذي يثير الحس والمشاعر في قوله تعالى: **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**[110]، مما هو من عموم التكريم، وعموم تبجيل التواصل الإنساني، بل والحقيقة الإنسانية في أصل وجودها، ومن ثم هي كرامة الفطرة البشرية في حقيقتها الكبرى، والعظمى، من لدنه جل وعلا.

لكن؛ تحدث تلك الإنحرافات التي تنتقص من الكمال البشري، ذلك الذي أشار إليه تبارك وتعالى بقوله: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**[111]، ليقود خط الفِكر أن الفطرة الإنسانية جميلة في أصلها، بارعة ومدهشة، ومتطلعة دوما، وعبر صيرورة الحضارات والتاريخ، وإلى اليوم، وإلى حقيقة البقاء الكوني لهذا

[110] الإسراء 70.

[111] المائدة 3.

الوجود، لكن هذا متوازٍ مع خط آخر، تجد فحواه في قوله تعالى: **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**[112]، فهذه الوحدة الإنسانية طرأ عليها طاريء الإختلاف، والتشويش، والإنحراف، ليتوازى هذا مع الخط الثالث، الذي مر بيانه، أنه لا تزال هناك نقطة مضيئة ومثمرة في ضميرنا الإنساني، وتكريمه الإلهي.

هذا الخط الثالث الأخير هو الذي تسري عليه تلك الأحاسيس الإنسانية المفعمة بالروح والعطف، رغم الإختلاف الثقافي، والتنوع العرقي، والرؤيوي بين طبقاتِ الحضارة البشرية، هذا الخط، والخيط، الرقيق والدقيق، الباقي في الطبع البشري، رغم كل العوادي الضارية التي تمر بنا عبر مسيرة الحضارة، وشريان التطلع البشري، في محاولاتٍ دائبة للإلغاء والبتر، والقص والتهميش، لكنه يظل دائما نابضا، ومتألقا.

هذا من جانب العموميات الكلية الإنسانية للقرآن العظيم، أما من جانب التخصيصات الإيمانية، فلا يكتمل البناء، ولايستقيم أصل الحضارة الإنسانية، حلمها، وتطلعها، وشوقها إلى كمال وجودها، إلا بتحقيق كمال التوحيد بالله جل وعلا، وفق منهج القرآن الكريم وحده، ليتزن حديث عبد الله بن سلام الآنف على جناحين متوازيين، متعامدين، أحدهما بالطبع عِلة الآخر، وهو فوقه وأعلاه: جناح السياق الأخلاقي الإنساني، المعتمدِ على الجناح الآخر: تحقيق كمال الإيمان بالله، ولقائه، والوقوف بين يديه، ومن ثم كان تقسيم الإمام الشوكاني الذكي؛ وفق العرض الآنف، إلى الإسلام الفطري، والإسلام الشرعي[113]، إلى عموميات القرآن الكريم الإنسانية، وتخصيصاته الإيمانية؛ جلّ مُنَزِله، وتقدس.

---

[112] البقرة 213.

[113] الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير 2\369، دار الكتب العلمية 2007.

الفصل الثالث والعشرون

الموازنة بين كليات الأخلاق الإنسانية وخصوصية الوحي

لايقيم الإسلام إذن، في تخصيصه الإيماني المطلق، وزناً للأخلاق غير المتصلة بالإيمان بالله وحده جل وعلا، وفق منهج القرآن الكريم، وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**[114]، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: مفاتيح الجنة شهادة لا إله إلا الله[115].

ولو تأملت الآية الكريمة السابقة، لوجدتها على ذات النمط الذي سبق في حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، إذا لاينفصل السلوك الأخلاقي، والتكافل الإجتماعي، ومحاولة بناء الأفراد والبيئة المحيطة بالإنسان، بل وبناء نظام إقتصادي سليم؛ بالطبع يقوم على منظومة سياسية راشدة وعادلة، لاينفصل كل ذلك عن الخط الآخر الأصيل، والأصلِ في ذات الوقت، وهو الإيمان بالله تبارك وتعالى، وهذه خصيصة مطردة في دين الإسلام، إذا مدار كل العبادات، والتشريعات، والمنظومات الأخلاقية، والتواصلية، والنفسية، الظاهرية، أو الداخلية، تلك التي تختص بالفرد، أو تلك التي تختص بالأسرة

---

[114] البقرة 177.

[115] أحمد، المسند 21621، عن معاذ بن جبل.

ونهضة المجتمع، وسواها من منظومات الإسلام المتكاملةِ الحضارية الأخلاقية والإنسانية، تدور كلها على قاعدة وصهوةِ جواد التوحيد وتحقيقه.

وليس هناك ثمة إضطرابا فيما بين اعتداد الإسلام بالكلياتِ الحضارية الإنسانية الأخلاقية، كما مر البحث كثيراً آنفا، وبين هذه الخصوصية القرآنية الفذة، فالتعامل على طبقات متعددة، متوازية، مشتبكة أو منفصلة، تخصيص الكليات أو تعميم الجزئيات، فرادةٌ قرآنية عظيمة، المقصود منها المرونة في التعاطي مع الكسبِ البشري، والفعالية في توجيه الحِراك الإنساني، واحتوائه، واحتضانه، وتظليله دوما بالكليات الإلهية الكونية العظمى، إنطلاقا من الآيات الكريمات الدالة على الأخوة الإنسانية، وتفعيل مبدأ التعارف، والتمازج البشري، والإلتقاء الحضاري، حول المشترك الإنساني البحت، كما تقدم من آيات كريمات، ومن أحاديث نبوية شريفة؛ تقدمت كذلك، تطرح بقوةٍ توحيد الأصل الإنساني، ومن ثم توحيد الحلم البشري، وتطلعه، وسبر تلك الأغوار التي تجعلنا متكاتفين، موحَدين، رغم المبثوث في طبيعة وديناميكية الخلق من وجوه الإختلاف؛ التي قررها القرآن الكريم، باعتبار الإختلاف نفسه أداة لخلقِ التواصل، والتمازج، والإفادة البشرية في مضمار المعطى الحضاري، والإنساني، والمفاهيمي بالطبع.

ومع ذلك، وعلى الخط القرآني الآخر، أو على الطبقة الدلالية الكبرى، والعليا، وكما مر التفصيل الذكي من الإمام الشوكاني بين الحقيقة الشرعية والحقيقة الفطرية، وهو تفصيل بالطبع له شواهده من كتاب الله جل وعلا، تقدم طرف منها، ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وتقدم طرف منها كذلك، أقول: على هذا الخط يكون التخصيص الإرتقائي والكمالي نحو حقيقة التوحيد الكبرى، لا فقط مجرد عموميةِ معطيات الحضارة السلوكية، والأخلاقية، والعلمية والمفاهيمية.

وكما سبق، فإن هذا يأتي من المرونة اللطيفة القرآنية، العظمى، والجميلة، والديناميكية، والرحيمة بالطبع، بهدف تحقيق مقصد السلام الإنساني، والإبقاء على مساحةِ المشتركات بين البشر، على اختلاف الطبقات الحضارية، والإعتقادية بينهم، نعم، يؤشر القرآن الكريم على مواضع الانحراف الإعتقادي، التي تقود بالطبع إلى مظاهر الإنحراف الأخلاقي، أو بصورة أدق إلى ميوعة المستند التأسيسي للأخلاق في الحضارة البشرية، فمع كون القرآن الكريم يؤشر على مواضع الإختلاف كما سبق، تأسيسا لهدف الكمال والتتميم البشري على مضامير الأخلاق والاعتقاد بالطبع، لكن المنهج القرآني يأتي على قاعدة الإحتواء، منطلِقا من بدهية القرآن الكريم العظمى، قال تعالى: **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**[116]. تتعدد المخاوف، والآلام، وتتعدد تلك الأطراف الشائكة، والزجاج المحطم والجارح، لكن وحفاظا على النفس البشرية، المكرمة قرآنيا، يفعّل القرآن مبدأ الرحمة، حفاظا على فسيفساء التجربة البشرية الثرة، في محاولاتهِ للدفع الإيجابي، الثر، والمدهش أبدا.

[116] الأنبياء 107.

الفصل الرابع والعشرون

الأخلاق الذرائعية وسحق فطرية القيم

يأتي ربط القرآن الكريم لمنظومته الأخلاقية، مع قاعدته التوحيدية، لسبب بسيط، رحيم، ومسئول، وهو الحفاظ على هذه المنظومة من التغول الذرائعي، ومحاولات الإستلاب المفاهيمي، السياسي، أو الإقتصادي، أو الثقافي، حين تصبح الأخلاق أقرب إلى أداة وسيطة لنهب مقدرات الأمم، واستلاب خيراتها، وإدعاء الخيرية المطلقة؛ المنفصِمة عن عرى الوحي العظيم، لتكون الأخلاق وقتها، على مستوى العلاقات الدولية، ومستوى التعاطي المجتمعي، ومستوى التواصل الفردي؛ في الأغلبِ الأعم، الذي لا يعجز عنه الباحث في محاولات الإستقراء التام المفصل، الذي تندرج تحته جزئيات الواقع التاريخي، والمعاصر، بل والمستقبلي.

أقول: في تلك الحالة من الانفصام عن عرى التوحيد، والمنهجية الثابتةِ التصوراتِ للقرآن الكريم، تصبح الأخلاق أقرب إلى مباديء نسبية متغولة، يفرض فيه القوي الغالب دستوره الفكري والمفاهيمي على الآخر المنكسر، والضعيف، لتصير الأخلاق نفسها؛ وقتها، حالة أداتية بحتة، لا حالة إنسانية صرفة، رحيمة، ودودة، طيبة، متفهمة، ومتعالية، ولايعني هذا بالطبع نقض التوصل الأول في الفصل السابق من أن القرآن الكريم يعتد بإنسانية الأخلاق في شمولية عمومها، تبعاً لمردود الفطرة البشرية، التي نَسجت حولها نصوص الإسلام الكبرى، مزيد دلائل، وبراهين، على سموِ هذا التعميم الإنساني الحر الذي قعّدته آيات الكتّاب العزيز، لكن بالمقابل، لايعني هذا طرحا يوتوبياً مغالٍ في أحلامه، كلا بالطبع، فمرصودات التاريخ، والواقع المعاصر، والواقع المستقبلي القادم، كلها

تدل أصلا على سمو الطبع البشري، والفطرة الإنسانية، بعامة، لكن ثمة خدشاً يحدث، وفق الدلائل الزمانية السابقة، مثل أنياب حادة وممزِقة، تنحرف عن بعض الفطرة السوية، لتحول الأخلاق وقتها إلى آلة نفعيةٍ، ضخمة ومدمرة.

وإنما يبني الإسلام منظومته الأخلاقية، على منظومته التوحيدية الإعتقادية، حفظا لمنظومة الأخلاق من التغول الآنف الذي مر ذكره، على شتى مضامير الحِراك الإنساني، وشتى التفاعلات والتواصلات الحضارية، ليحصن هذه المنظومة من تلك اللحظات الكثيرة بالطبع في مسيرة التطلع والحضارة البشرية، لحظات الإستهداف لوجودنا عبر تفعيل الأخلاق كمنظومة تدميرية، تهدف أصلا إلى نفع سلطة قليلة، ثرية، منعزلة، والأمثلة التاريخية على هذا المناط كثيرة جدا، وفي اليونان القديمة مثلا، ومع كل المحاولات التي بُذلت من جانب التيار الإصلاحي، فإن عصب الدولة دوما كان بيد أثرياء أثينا، وهو السبب الرئيس الذي مزق الدولة اليونانية ومدائن البحر الأيوني وقتها، فمع توحش الطبقة الأوليغاركية، بذلت هذه الطبقة كل وسعها في سحق المعارضين، وإحالتهم إلى هباء ورماد، مهما كلفها الأمر، لتخلو مدن السواحل الإيجية من البشر، ولتصبح مثل قصة حزينة لأنشودة خراب عظمى، لأن توجيه الأخلاق على المضمار السياسي، والإقتصادي، والديني، كان يصب في مصلحة الطبقة الحاكمة الثرية المسيطرة، والتي، مثلا، هالها ظهور الملحدين اليونانيين وقتها، ليس لأجل طبيعة الدين أو التوجس من صحة العقيدة السائدة وقتها، التي يهيمن عليها زيوس وأبنائه وبناته من الآلهة، أو إلهاتُ الحبِ والجنس في مضيق كورنثا، كلا، إنما كان الخوف، أن السائد الديني وقتها، كان يكرس لهيمنة الطبقة الأثينية الثرية، ولا يشكل لها مشاكل في طرقها التجارية، مع آسيا الصغرى، مصر، وكريت، وسواحل الشام، والحواضر الفينيقية.

المقصود، أن بناء الإسلام لمنظومة الأخلاق يأتي تأسيسا على منظومة التوحيد، والحديث هنا عن القياسية المعيارية، لا عن سلوك المسلمين المعاصر، حتى لايتم الخلط بين الصيرورة الواقعية، ونماذج الوحي الرفيعة، وهذا الإنحراف المعاصر نفسه له أسبابه المتعددة، والمركبة.

الفصل الخامس والعشرون

المعيار الإسلامي لسند منظومة الأخلاق

مر أن تخوف الإسلام من الفصمِ بين منظومة الأخلاق، ومنظومة التوحيد؛ يأتي من التوجس باتخاذ الأخلاق نفسها سبيلا ذرائعيا، يتبع فقط المصلحة، ولا يفعّل سوى الرغبة في السيطرة السلبية، والهيمنة اللا أخلاقية، وعلى بسط المصلحة التي ترتبط بسياقٍ ما، أو دولة ما، أو منظومة أخلاقية ما، أو أي إرتباطات أخرى، ذرائعية، نفعية، تصادم الحس الإنساني الأصيل، ولو على حده الأدنى الفطري، ناهيك عن الترقي إلى التميم والكمال التوحيدي، حسب منهج القرآن العظيم.

ولايحتاج الأمر إلى كثير بيان واستدلال، فوقائع العصر المؤسفة حولنا، تشير إلى هذه الذرائعية الأخلاقية؛ على مضامير السياسة، والاقتصاد، والثقافة، وبناء منظومات إجتماعية، براقة، لكنها في جوهرها متهاوية، وضعيفة.

ولايمكن بحالٍ القول أن المسلَّم الحضاري لعصرنا هو نتيجة مقبولة بالمطلق، وإلا كنا خارجين عن سياق العقل النقدي الإسلامي، الذي يفعل خصيصة التوقف، والنظر، ووزن الأحوال والإطراداتِ على موازين الإسلام الكبرى والعظمى، قال تعالى: **الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان**[117]، وقال عَز مِن قائل: **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة**[118]، وموازين الدار الآخرة؛ ذلك الإمتداد الوجودي، والكيانيّ، للتجربة البشرية، لايمكن بالطبع أن تكون موازين كاملة، شاملة، عمومية، إطلاقية الدلالة، والفحوى،

[117] الشورى 17.

[118] الأنبياء 47.

سارية على جميع البشر، ما لم تكن هذه الموازين بالأصل، متسقة مع نظائرها في الدنيا، ليصير الجزاء الإلهي، عدلا، وحكيما، وعليما.

أقول: لاينفع الإطراد بالقولِ أن المسلَّم الحضاري لعصرنا؛ الذي بلغت فيه العلوم والفنون، وتقنيات الحضارة، أمدا معتبرا، لايصح الإطراد أن هذا العصر بكل قوته في حِراك التجربة البشرية، أن يكون ميزانا للصيرورة الإنسانية اليوم، فهذا بخلاف الواقع التاريخيّ الماضي، وبخلاف الواقع التاريخي الآني.

وإنما حدث سقوطنا الأخلاقي اليوم، في طرفٍ كبير من تجربتنا الحضارية، لأجل ميوعة المستند الأخلاقي، التوحيدي؛ كما هو مطرد وملزومٌ عبر نسقيات كتاب الله جل وعلا، ثم سنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ثم سيرة أصحابه وتابعيهم بإحسان رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فحدث السقوط الأخلاقي، لأجل إختلال الموازين، والقيم، وفلتانِ العاصم والضمير، ونوعا ما في احتكاكاتٍ كثيرة؛ على المستوى العسكري، والسياسي، والإستراتيجي، تكاد تذوب الفطرة السوية، إلا بقايا من ظلٍ خافت، تحكمه أعرافٌ وتقاليد دولية، تحاول على حياء البقاء وسط الهيمنة الأوليغاركية، للدولة الأقوى على الأرض، والتي توجه الأمور نحو مصالحها العليا، لا نحو الفائدة الإنسانية المضطردة، والعامة، النزيهة، والشريفة، حسب إفادات مراقبين كثر، لسيرِ، وطبيعةِ، العلاقات الدولية الآنية المشتبكة، وثمة خلوصاً، ونوع إجماع، إلى أن التطورات على المستوى الدولي الحالي؛ قد تفعل العودة إلى مردودِ النظريةِ الواقعية؛ حول حتميةِ الصراع[119].

[119] محمد طاقة، مأزق العولمة وحتمية الإنهيار صـ79، دار دجلة 2018. ومحمد ميسر، مستقبل التوازنات الجيوإستراتيجية العالمية صـ467، دار الأكاديميون 2021. وطارق محمد، الأمن الدولي في القرن الواحد والعشرون صـ102، دار الأكاديميون 2021. وعمر كامل، الإتجاهات المستقبلية للسياسة الخارجية الأمريكية صـ26، دار الخليج 2020.

من ثم، كان التشديد الإسلامي على ربط الأخلاق سلفا بحقيقة التوحيد، فكل فعل أخلاقي، أو مواساة، أو محاولة لتنظيم الشأن الإنساني، أو مساعدة للبشر ضمن رحلتنا على هذه الأرض، في تلك الحالات التي نقع فيها صرعى جيمعا تحت أحوال متعددة، من الفقر، أو الجوع، أو العري، أو التشرد؛ أو كل منظومة سلوكية أخلاقية، تفعل مزيد تواصلٍ إنساني، ومزيد تمازجٍ ثرّ ومتين على هذا الكوكب، ربطَ كل هذا السلوك الأخلاقي القويم، بمبدأين: مبدأ الترهيب، باعتبار خطورة المجاوزة لمعطى ما، في كتاب الله أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومبدأ الترغيب، في الحث على الفعل وفق كتاب الله وسنة رسوله، صلوات ربي وسلامه عليه.

ففي المبدأ الترهيبي، تأتي أحكام الكتاب والسنة ومنظومات التشريع الإسلامية، قوية، معبرة، حتى لاتكون ساحات الأخلاق، والسلوك البشري، مباحة للسطو، والتغول الذرائعي، والمصلحي، ووفق الكرامة الإنسانية العامة، التي قرر الحق جل وعلا في كتابه، وقررها النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث عدة، يبدؤها صلوات ربي وسلامه عليه بقوله: يا أيها الناس، كما ترى في خطبة حجة الوادع[120]، الحافلة بالنسقياتِ التوحيدية، والتشريعية، والأخلاقية، وكأن الإشارة فيها شاملة لعموم البشر، تحقيقا لقاعدة التعميم القرآني الكريم، في الإعتداد بعمومية الفِطرية الأخلاقية الإنسانية، مع اعتدادها أيضا؛ وكما سلف البحث؛ بحتميتها الإصلاحية، وصولا؛ وحسب مصطلحات القرآن الكريم، لحالة التميم، والتكميل، الذي ارتضى الحق جل وعلا لعباده، يوم أن قال: **إن الدين عند الله الإسلام**[121]، بنسقهِ الشرعي.

---

[120] البخاري، الصحيح 1664، عن ابن عباس.

[121] آل عمران 19.

ومنظومات الترهيب في نصوص الكتاب والسنة أوعب من الحصر، ومدلولها الكلي يقوم على تفعيل الخُلُقِ التوحيدي ابتداء، والإعتداد بالتأديب لمخالف هذا المنهج التوحيدي السويّ، فالأخلاق مستندها توحيدي، عليه، لاتصير نسقيات الأخلاق ذرائعية، أو مصلحية، لأنها تستند على ميزان التوحيد الأكبر، الذي يقع مخالفه في ضده المرذول، ولما كان الأمر كذلك، فثمة نوعان من الأخلاق، حسب منهجية كتاب الله تعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، النوع الأول: أخلاق توحيدية صافية، تقوم على ميزان الإسلام العدلي الأكبر، وقد يؤدب مخالفها، وفق سلاسل الكتاب أو السنة التشريعية، على تدرجات في المخالفة، وفي التأديب، والنوع الثاني: أخلاق ذرائعية، مصلحية، شركية، عدمية، لاتعرف إلا نسق السيطرة السالب، ومحاولة زج المنظومات الدولية، والسياسية، والإجتماعية، والثقافية، في حلقة مرهقة، من رغبتها في الإستحواذ، والهيمنة، ومهما حصل تبرير ما، أو محاولة التأسي بمستند ما، فهي لا تكون إلا وبالاً على البشر، ومستندات التاريخ، والواقع المعاصر، دليلٌ أكبر، ومنهجٌ أغر.

الفصل السادس والعشرون

غائية الأخلاق في مقابل الصَوَلانِ العبثي للقيم

تمتليء خزائن الكتاب العزيز والسنة المطهرة، بدلائلِ الترغيب على الأعمال الصالحة، تلك الأعمال التي تقوِّم التجربة البشرية الصحيحة، وفق طريقة التوحيد القرآنية، والتي تبتغي وجه الحق جل وعلا، وتجعل رضاءه سبحانه مقصداً أكبر، قال تعالى: **إنما نطعمكم لوجه الله**[122]، وهذا الوجه القويم، السليم، والشريف، هو الذي يوجه ويضبط حركة السلوك الأخلاقي في القرآن الكريم، ولو تأملت، لعلمت أن جوهر هذا العامل المنضبط، المتحرك بأريحية تامة وفق تفصيلاتِ السلوك البشري وتطوره، والثابت بأريحية تامة كذلك، لعلمت أن الثبات ومحور الدوران، وجوهرة العقد، دوما هي تحقيق التوحيد الصافي.

وفي الحقيقة، تبرز هنا لمعة ذكية، تقوم بالأصل على المبدأ الوجودي الذي يقوم عليه ديننا الحنيف، وهو الإعتداد بغائيةِ الكون، والاعتقاد الجازم بهدفيةِ هذه المنظوماتِ الهائلةِ الموزعة على سلاسل الخلق، بكل ما فيها من العِلل، والمعلولات، الإضطرادات، والسياقات الكونية المنضبطة لمصلحةِ الخلق؛ ماعرفنا منهم ومن لم نعرف، قال تعالى: **ويخلق مالا تعلمون**[123]، أمارة على سعة الجناح الكوني، الذي يظلل تحته خلائق شتى، متنوعة، كثيرة، هائلة بقدر امتداد هذا الأفقِ الكوني، والذي وصل رصدنا فيه فقط إلى

[122] الإنسان 9.

[123] النحل 8.

13 مليار سنة ضوئية[124]، عند حدود الأفق الكوني المعلوم بالنسبة لآلاتنا البشرية، مع إفادات فيزيائية واضحة، أن ثمة وجودا آخر، وراء تلك الآفاق البعيدةِ عنا.

عليه، يقوم المبدأ القرآني الكريم، على غائيةِ الخلق كما تقدم، وعلى وجود الهدف الأسمى من هذا الوجود بما فيه نحن، وبما أن الأمر ليس خبط عشواء، أو ذرات تنظمها فوضى، تم تأليهها قسرا، وضعفا في الإستدلال، وهباء في العقل، ومع محاولات مستميتة لفرض اللاعقلانية باسم العقلانية، ومحاربة العقلانية تحت راية عَمية تقودها اللاعقلانية.

يفعل الإسلام هذا المبدأ الأسمى لحقيقة الوجود البشري، ومنه تتفرع كافة تصورات ديننا الحنيف عبر نصوص الكتاب العزيز، وسنة سيدنا رسول الله صلوات ربي وسلامه، ليصبح المنهج الغائي الهدفي لمنظوماتِ الكون، ثابتاً مطلقاً ضمن معادلات الإسلام الكلية الكبرى، نسير على هداه، ونحقق القضية البشرية وفق دلالاته، ومنظومة الأخلاق بالطبع ليست منفصمة عن مدلولات هذا المبدأ الأسمى، وعبر التاريخ، حاول الكثيرون بناء الأخلاق على أساس مختلف، وتم الإنتهاء بها في آخر الأمر إلى مصلحة نفعية بحتة، ولايجدي تبريرٌ ما حول جمالية السلوك، أو حضارية التعامل، أو عقد مقارنة جوفاء، لجعلها ميزانا يعتد، فإن هذا لايسوى في ميزان القرآن الكريم، مرقاةَ رياح وانية، ويصير التحقق التوحيدي دائما هو الميزان الأسمى للسلوك الأخلاقي، وكما مر في سالف البحث، ومع تقرير القرآن العظيم لعمومية الفطرة الجميلة، المشتركة إنسانيا مطلقا، لكنه دوما يحفز نحو التكميلِ التوحيدي الأسمى.

وبناء المنظومات الأخلاقية؛ عندي؛ واستنباطا من براهين كتاب الله جل وعلا، على أي أساس آخر لم يجدِ طوال التاريخ، سوى إلى مزيد إضطراب، القلقُ الذي يظل ملازما

---

[124] شيرين آغا، بنية الكون ص201، دار غيداء 2017. وعماد مجاهد، الموسوعة الكونية الحديثة ص155، دار الخليج 2020.

لنا دوما، ولو قلنا أن القلق ينشطر بين شطرين: إعتقادي وأخلاقي، لم نكن بعيدين عن صريح الحقيقة، ولم يكن نصيب المصلحين عبر التاريخ البشري إلا الإنزواء التام، لأنه وإن كانت القاعدة المجتمعية نوعا ما تقبل منظومة أخلاقية سليمة، وإنسانية، لكن الطبع البشري من دون ضابط التوحيد، وخوف الله جل وعلا، والإعتداد بمحبته، ومراقبته، باعتبارها العين الكبرى التي ترصد السلوك البشري، وتقوّم الخط الحضاري نحو الوجهة التي قررها الإسلام، وأنها غائيةٌ وهدفية؛ من دون ضابط التوحيد لمنظومة القيم والأخلاق، ينفلت الطبع البشري، ويذوب في بيداوات واسعة من القلق الأخلاقي، القسيمُ الآخر لقلقنا الإعتقادي.

ومع كل الجهد الذي بذل، ومع خطب شيشرون الروماني الجذابة، ومعاناة فلاسفة اليونان، وتضحية الرهبان الهنود الحفاة العراة، كان من الصعب دوما تقويم الخط بشري بصورة كاملة، وتامة، لأن خطة التقويم ينقصها شيء مهم وجوهري، يتجلى دائما عبر نصوص الإسلام، في الإيمان بالله وحده تبارك وتعالى.

ربما تثبت منظومة أخلاقية، على مضمار السياسة، والإقتصاد، والثقافة، والفعل المجتمعي، لكن أحكام الحضارات البشرية لاتؤخذ من لحظة حضارية صغيرة، بقدر ما تؤخذ من مدلول كلي طويل، ممتد، يراقب الخط الحضاري على فترات طويلة، ويرصد النمو أو التقلص الأخلاقي والقيمي، وثمة شيئا ما لايبعد القول بتعميمه، أن الحضارات قد تبدأ رواقية بحتة، وتنتهي أبيقورية صِرفة، وبين المنحنيين، تتأرجُ القيمةُ البشرية، بين محاولة النهوض، أو حلم التطلع نحو الكمال التوحيدي؛ حسب منهج القرآن الكريم، وبين الأرجوحتين تحصل الثورات، والمعارك، والإحتكاك السياسي، والعسكري، والإنغماس التكتيكي، والاستراتيجي، وكما مر من سالف البحث، فإن الفطرة في حقيقتها الإلهية، ليست إلا تلك المرآة الصافية لحقيقتنا، وتطلعنا، وفي بعض الآثار: إني خلقت عبادي

حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا[125]، فهي تلك اللحظة من السقوط البشري، التي لم تمنع أغنياء روما؛ من التمتع والإنحلال الأخلاقي المدعوم بالثراء الفاحش، على خليج نابولي؛ على سواحل مدن بومبي وهيركيولانيوم، في ذات اللحظات التاريخية التي كانت إيطاليا تحترق بالثورة، ويُصلب المحتجون على آلاف الصلبان في الطرق المؤدية إلى روما؛ تحذيرا أوليغاركيا إلى كل راغب في الحرية، ومع ذلك، ومع التفسخ الذي حصل، وكما هو الآن في طرف من مسير حضارتنا المعاصرة، لم تجد القواعد الدنيا من المجتمع إلا التخلي عن أخلاقها لصالح المصلحة المالية، والتعامل الواقعي الصرف مع التقاطعات الإقتصادية والثقافية الحاصلة بكل ألمها، ونُقِلت تدوينة إيطالية حزينة حول ذلك التعارض النفسي، الذي يجعل الإنسان يفعل مالا يرضاه ضميره من السلوك الأخلاقي، لكنه لم يعد هناك طريق إلا بهذه الصورة، باللصوصية الأخلاقية، وعبودية القيم؛ طلما غاب ذلك الميزان الأكبر الأجل؛ ميزان التوحيد.

عليه؛ فنظرة ديننا الحنيف إلى منظومات الأخلاق تقوم بالأصل على منظومته الإعتقادية، التي تفعل وبالمطلق التام، غائية الكون، وهدفية المقصد الوجودي، لما لم يكن الخلق عبثا، قال تعالى: **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون**[126]، ولما لم يكن الخلق عبثا، ولما كان الارتباط الضمني الصلب بين منظومة الأخلاق ومنظومة الإعتقاد، هو في جوهر الإسلام وعظمته، عليه، لن تكون الأخلاق عبثا، طالما كانت المنظومة الإعتقادية نافية للعبث، مطلِقة للغائية الكبرى في الكون، وتأسيسا؛ ستكون الأخلاق أيضا غائية، توحيدية، هدفية، لا أخلاقا مصلحية، عبثية، عدمية، ينهار معها مع الوقت

[125] مسلم، الصحيح 5249، عن عياض المجاشعي.

[126] المؤمنون 115.

الغشاء الفطري الدقيق الإلهي، تحت سيطرة المال والقوة، وتحت الضعف الذي يدخل النفس البشرية، طالما لم تهذبها توحيدية القرآن العظيم العظمى.

الفصل السابع والعشرون

رحلتنا الطويلة وشغفنا لكشف ستر المستقبل

كيف يكون المستقبل؟ وكيف نستشف من المسير الحضاري اليوم ماسنكون عليه غدا، وربما بعد أعوام طويلة في المستقبل؟ وما مدى أهمية التساؤل المستقبلي بالنسبة لطبيعةِ، ولحقيقةِ الوجود البشري؟

في الحقيقة، نحن شغوفون بالفطرة نحو هذه الأسئلة، تلك الأسئلة التي توجهنا نحو النظر إلى أفقٍ آخر بعيد، مختلف، وربما مميز، أو ربما غير ذلك، ومع كونه ربما يصعب التشكيل التام للمستقبل، لكن على كل حال يظل السؤال هاجسا بشريا مستمرا.

وفي الحقيقة، وفي طرف كبير من معادلة المستقبل البشري، لايمكن الإلتفات السالب، عن تلك الحقائق الكبرى في صلبِ الوجود البشري، وجوهره، تلك الحقائق التي ما زالت ضمن أجندة التطلع الإنساني من قرون طويلةٍ وطويلة، وعلى الأقل من العهود التاريخية البشرية المعروفة لنا، وربما لايمكننا نفي حضارات سابقا، للسلم الحضاري البشري الكلاسيكي المعروف، الذي نطالعه اليوم في مكتباتنا، وجامعاتنا، ومنتدياتنا الثقافية والتفاكرية، إذ عدم المعرفة لايعني عدم الوجود، ومسألة التعاطي البشري، والعقلي مع أفقٍ معرفي يجول في الإحتمالات الإدراكية، مؤسسة قرآنيا، قال تعالى: **ويخلق ما لاتعلمون**[127]، وقال سبحانه: **فلا أقسم بما تبصرون. وما لا تبصرون**[128].

---

[127] النحل 8.

[128] الحاقة 38-39.

عليه، تظل ثمّ مساحة واسعة للجدل حول آفاقٍ وجودية متعددة، ويظل الشغف البشري إلى المعرفة مشتعلا، ولولا ذلك مثلا، لما برع البابليون القدماء في علم الفلك براعة مدهشة، فنحن إلى اليوم، وفي كل الكوكب، نستخدم تقسيماتهم اليومية، والأسبوعية، للزمن، لينتقل علم الفلك منهم إلى اليونان، ثم إلى روما، وعبر هجراتٍ وسيطةٍ ناقلة كذلك، من أرض نينوى، ثم من آسيا الصغرى، حملت ذخيرة سورية الحضارية الباذخة إلى إيطاليا، لتشد من أزر روما في بداياتها التوسكانية البعيدة، أقول: لم يكن للشعلةِ المعرفية أن تظل متقدة، متطلعة إلى ما وراء وجودنا الآني، ومنه المستقبل اللا منظور بالطبع، لولا سريان هذا الشغف القديم في خصوصيةِ وجودنا، بالتطلع إلى تلك المنظومات النجمية، وانفجارات النوفا، والسوبر نوفا النجمية كذلك، التي كانت تشع عبر أبعاد الكون الهائلة، مثل حلم مدهش، وجذاب، كأنها تخاطب فينا سحراً حلواً، يعرف أن ثمة ماهو هناك، أكثر دهشة، وروعة، قال تعالى: **فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم**[129].

لايمكن حينها الإنفصال عن تلك البؤرة المتطلعة نحو الأفق البشري، الغائب الآن، وثم الحاضر لاحقا، المستقبل، فهو سيكون مثل ذلك الحصاد الذي كنا ننتظره أو نتوقعه، لكل تلك المسيرة البشرية عبر تاريخ من قرونها الماضية، من التاريخ المعروف بالنسبة لنا، من بدايات إنفجارات الحضارة في أرض الرافدين ثم في مصر القديمة، وعبر هجرات متمازجة قوية، قديمة جدا، كان ذلك المزيج الثلاثي المدهش، لقادمين قدامى من أرض جزيرة العرب، مع مجموعات بلاد الرافدين، ومع مجموعات سورية القديمة، ليشع نور الحضارة، والآداب، والفنون، واللغة، والقوانين، وقصص الحب، والحصاد، وحكايات أسرية قديمة مرحة، ورحالة أسطوريون يجوبون أرضاً غامضة لايعرفها أحد، وقصائد عشقٍ نبيلة، رنانة، وترية، مزيج مدهش، حضاري، قوي، رقيق ونبيل، وناضج، انفجر من هذا المعمار

[129] الواقعة 75-76.

الثلاثي المتين، مُهدياً أسس الحضارة إلى أغلب الكوكب، شرقاً عبر الصلات الفارسية بآراضي الهند وما ورائها، وغرباً نحو أوروبا، من مراكز نقلية وسيطة، مثل جزيرة كريت.

أقول: عبر كل هذه المسيرة وإلى عصرنا اليوم، لم تنقطع مسيرة التطلع البشري، نحو ماهو آت دوما، باعتبار هذا الآتي، مثل قطعة متبقية للعبةِ بازل تكمل هذا التصور الذي يداعب الخيال البشري، الذي كان يتوق دوما إلى تفجير ستار المستقبل، لمعرفة المآل، والمصير، واستمرار مصفوفة الحِراك البشري المتقد، ولو حتى عبر استقراء العرافين، الذين كانت لهم سطوة هائلة في تلك العهود القديمة، وتحكم كبير، في القرارات السياسية، والإقتصادية، والإجتماعية، في مجتمعاتنا تلك، من سنين ألوفٍ مضت.

الفصل الثامن والعشرون

غائيات المستقبل والربط التوحيدي المطلق

يقرر القرآن الكريم خاصية الشغف البشري في التطلع إلى وجودنا البعيد؛ المستقبل، قال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**[130]، وقال تعالى: **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا**[131]، وقال تعالى: **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك أتوب عليهم وكان الله عليما حكيما. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن**[132].

هذا، ووجه الدلالة من الآية الأولى من سورة الحشر، أن الحق جل وعلا حث على النظر إلى الغد؛ بإطلاق مفهوم الغد، فلربما هو اليوم التالي، ولربما هو أبعد، ولربما كذلك هو عند المستقبل البعيد؛ وعلى كل الإحتمالات، يبقى معنى الآية الكريمة من جهة الدعوةِ والحث، لا من جهة التقريرِ فقط، فهي دعوة قرآنية كريمة إلى النظر في مآلات الواقع، ثم تتبع الإستقراء، والبحث للوصول إلى نتائج الغد، وبالطبع البدهي فإن هذا النظر، والرغبة في التتبع، والسبر البشري العميق لهذا الغد، لايكون قطعا إلا من تلك البؤرة المتطلعة للنظر إلى المستقبل؛ وكأنه ربط قرآني دقيق مابين الرغبة البشرية المتطلعة، وبين الحقيقة الفطرية الإنسانية الكامنة فينا، وكلاهما مزيج مزدوج من وجهٍ ما هو خاصٌ

---

[130] الحشر 17.

[131] النساء 9.

[132] النساء 17-18.

بالآخر ومتضمن له، وما بين كذلك أن يكون هذا التطلع للغد مبنيا قبل كل شيء، على مناطات التوحيد، والتقوى، والإيمان، تلك القاعدة الكبرى والكلية، والعظمى لكل دلائل الكتاب العزيز.

فهذا الربط مابين أصل الإيمان والتوحيد، والتطلع المستقبلي، هو ربط دقيق جدا، وغاية في الحساسية القرآنية العظيمة، فعلى المستوى النفسي، والفردي، يصبح التطلع لما هو هناك، بعيدا ولما لم يأتِ بعد، منسوجا، حسب منهجية القرآن الكريم، بعلائق التوحيد، ودلائل الإيمان، وهو متضمن إلى شيء آخر غاية في الأهمية، تم الإيعاز إليه في الفصل السابق، وهو أن تطلعنا المستقبلي لن ينفصم بوجه ما عن حقائق التطلع البشري الكبرى، الباحثة في الكون، وفي الحقيقة الكامنة وراء تلك الآفاق الكبرى المنطوية وراء جهلنا المستمر، فحسب دلائل الكتاب العزيز لا يمكن فصل المستقبل البشري، عن غايته التوحيدية، تلك الغاية التي قررها كتاب الله جل وعلا، وقررتها العقول السليمة، المنضبطة، البعيدة عن الهوى، أو التحيز في الأحكام، أو الإنطلاق من مسبقات ذهنية أو عقلانية مستترة وراء شغاف القلوب، فالتجرد للحقيقة، ربما في أحيان ما يحتاج إلى تجريد الذهن نفسه، من الأسبقيات العقلية أو المفاهيمية، قال تعالى: **قال أَوَلو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباكم**[133]، فثمة حاجة دقيقة لعملية تحرير ذاتي، قبل الوصول إلى عملية التحرير الخارجي ثم الواقعي.

عليه، تحبذ آية سورة الحشر الكريمة، تلك الأبعاد المستقبلية القائمة على عُمُدٍ عدة، من تحرير تلك الطاقة البشرية الراغبة في السبر والإكتشاف، ومعرفة مآلات الآمور، وحقائق نهاياتِ الأشياء على أرضنا، مع التضمين الأكيد والدقيق لمفاهيم التطلع الإنساني العامة، المرتكزة على معاني الفطرة السليمة، كما قررتها آيات الكتاب العزيز، ثم سنة رسولنا صلوات

---

[133] الزخرف 24.

ربي وسلامه عليه، من جهة عمومية المعطى الانساني، لكن في ذات الوقت، تدفع الآية الكريمة الآنفة، وكما هي عادة الدفع القرآني المخصص، نحو حقيقة التوحيد التام المطلق، باعتبار أن المستقبل نفسه، إنما يَنال كمال التطور البشري، والسعي الإنساني، وتحقيق المقاصد الغائية والوجودية لحياتنا على هذا الكوكب، عندما يتحد مع المنظومة الإسلامية الأولى المطلقة، منظومة التوحيد الصافي النزيه، على مرتكز الإعتقاد والتصورات، فالتطلع إلى المستقبل نفسه وفق منظوماتِ الإسلام الكبرى، يلتحم إيجابيا مع حقيقة التوحيد، ليُكسِب وجودنا نحن البشر، الغائية، والهدفية المطلقة لحِراكنا، ولتطلعنا البشرى.

الفصل التاسع والعشرون

إستباق المستقبل ومحاولة البناء من الحاضر الآني

على ذات النسق الآنف، في الفصل الفائت، تأتي الآية الأولى في مطلع الفصل السابق من سورة النساء؛ فالخوف على من نحب ومستقبلهم هو جزء أصيل في الطبيعة البشرية، وتناولته الآية الكريمة بالحث على العدلِ في الوصية، ومحاولة البناء الإيجابي للمستقبل للأطفال، الذين هم بالقطع رجال ونساء الغد، الذين يمكن أن يحملوا أفكارا جديدة، واحتمالاتٍ جديدة؛ وخلاقة لعالمنا.

وجاء الأمر الإلهي الكريم عن طريق الربط؛ كما هي عادة الإسلام دوما، عبر الدعوة إلى تقوى الله تعالى، ومراقبته سبحانه في مثل تلك القرارات التي تؤثر في مسيرةِ، ومستقبلِ الفرد، لتكون المحصلة، عند الإلتزام بالتوجيه الإلهي، وضع لبنة أولى نحو غدِ أولئك النشء، بتوفير سبل الحياة الكريمة لهم، ووضع الحدود المقبولة من الناحية المادية لهم، ليتمكنوا من مقابلة إحتياجاتهم المستقبلية، في عالم، للمطلع البصير، صراعه نحو المستقبل أكبر من صراعه على الحاضر، إذ في الحقيقة من يمتلك القدرة على تشكيل المستقبل، هو في الحقيقة من يملك جزءاً كبيراً من معادلة الواقع.

وكما سلف القول في الفصل السابق؛ يأتي الربط بين التطلع المستقبلي، وبين مراعاة القيم التوحيدية، فآية النساء هذه تراعي التنبيه للتقوى، وليست التقوى بالطبع إلا ثمرة باذخة من ثمرات اليقين والتوحيد وصحيح الإعتقاد في الله تبارك وتعالى، فلايمكن مخاطبةُ ما بالتقوى ما لم تكن تلك الأصول المتينة موجودة بالفعل، إذ التقوى لا تتأتى إلا بعد كمال المعرفة، وكمال التحقق، وكمال التفكر العقلاني الرصين؛ في موقع وعلاقة الخالق بالمخلوق،

لتأتي الثمرة مزهرة دانية، قال تعالى: **ألم ترَ كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون**[134].

عليه، وعوداً على بدء، يصير ذلك الربط المنهجي الإعتقادي، مابين التطلع المستقبلي، والتحقق التوحيدي، من ضمن أنظمة الإسلام الكبرى في متتالياته الإعتقادية، ولسبب بدهي، ومنهجي كذلك، أنه لافصل بين المستقبل، وبين طبيعة الوجود البشري وماهيته، وغائيته، وصيرورة التكميل والتتميم التوحيدي، الواردة في ثنايا الكتاب العزيز، باعتبارها النموذج الإنساني القرآني الأسمى، والمعيارية القياسية للكينونة البشرية، وفق محددات المنهج، من كتاب الله جل وعلا.

يصير حينها، وضمن أجزاء كثيرة من أجزاء المعادلة المستقبلية الإنسانية، توفير أسباب الحياة الكريمة لأطفالنا دعوة قرآنية مستقبلية، تراعي وبقوة طبيعة التطلع البشري الوثاب، نحو الكشف والآمال الكبرى المعقودة على الجيل البشري الذي مازال يخطو أمامنا خطواته الأولى الصغيرة، وربما يوما تكون كبيرة وضخمة.

أما الآية الثانية من سورة النساء، في مطلع الفصل الثامن والعشرين، ففيها تلك الخاصية الدقيقة، العميقة في المحيط البشري النفسي، وهي بالطبع أقرب إلى مخاطبة تلك الأصول التوحيدية الكبرى، التي قد ننسى أو نذهل عنها في خضم رحلة الحياة المثقلة بالأعباء والإلتزامات، وربما حينها تضيع منا فرصٌ كبرى في الترقي التوحيدي، ويحصل من الإنسان تقصير تجاه خالقه جل وعلا، على اختلاف درجات التقصير وفصوله، فجاءت الآية الكريمة حثاً على استباق المستقبل الذي لم يأتِ، المستقبل الإنساني الفردي الأقرب، ولايبعد الجمعي كذلك، في التنبه إلى استدراك الخلل قبل انقضاء الحياة، وتكميل

[134] إبراهيم 24-25.

النفس بالترقي العقلي والروحي قبل حضور الأجل، وليس هذا الحث على الإستباق المستقبلي في آيات القرآن الكريم إلا دعوة في خصوصها، ثم في عمومها، إلى التفكر في مآلات المستقبل، وحقائق القادم البعيد من وجود البشر، وتوجيهٍ منهجي إسلامي في وضع التخطيطِ المرتكز على قراءة أوضاعنا الحالية، مع مافيها من تقصير وخلل، لنبني عليها الكمال المرجو، في قلب الأيام القادمة، في قلبِ الغد.

الفصل الثلاثون

الضابط القرآني المنهجي لحلم التطلع والمستقبل

ظهر في الفصلين السابقين، كيف أن تشكيل المستقبل، وفقا لمرجعية القرآن الكريم؛ وكما هو التقرير الغالب دائما في كل قضايا الوجود البشري، وأحلامه، وتطلعاته نحو الكشفِ، والسبرِ، واكتناف حقائق الأشياء، وهدفيةِ الكون المنطلِقِ الأكبر؛ ظهر أن المرتكز التوحيدي ركنٌ أصيل كذلك في تحرير النظرة المستقبلية القرآنية، نحو عطاء البشرية المتجدد، وفحوى إبداعها الخلاق والواسع.

وفي الحقيقة، لايحتاج هذا الأمر؛ مع الفهم العميق والدقيق، لمقتضيات القرآن الكريم، إلى كثير بيان، أو تحريرٍ ما لمنزلةِ ثمّةَ إستدلال، إذ هذا القِرانُ المستقبلي التوحيدي، بدهية قرآنية صِرفة، ومبدأ إسلامي أصيل ونبيل، ومقصد نبوي شريف، وهو يستند أول ما يستند على الإيمان بالله تعالى جل وعلا، وكمال اليقين المبني على قواعد القرآن الكريم، من تحرير العقل البشري؛ حتى مما يظن أنه من مقتضى العقل البشري، للخروج برحاب العقل نفسه إلى ساحاته المطلقة البعيدة عن التشويش والإرتباك، وغموض الرؤيا، والتباس المفاهيم، وسيطرة الأكلشيهات المتداولة في العصر، ومحاولة الإنثناء المطلقة عن مفاهيم بديلة، بدوافع عدة، إجتماعية، أو ثقافية، أو مالية، أو سياسية.

بهذا التحرير الكلي، ينضبط العقل البشري على مدرج الإستدلال القرآني، وبالتالي لايصير الوجود البشري، وخاصيتنا المتطلعةُ الشغوفةُ إلى المستقبلِ أو حتى ما وراء المستقبل، إلا من ضمن القِران القرآني التوحيدي لعموم المعطيات الإنسانية، ولكل خواصِ الحضارة، وديناميكيات الحِراك البشري، لتكون وحِدة الرؤيا شاملة، وكلية،

ومغطية على كافةِ أوجه القلق، الذي هو؛ وكما مر من آنف البحث، صِنو الشتات الإعتقادي، والأخلاقي، والرمز الأكيد الفحوى على عبثية الرحلة، هباءَ الجهدِ، وشوقنا الحقيقي للكشف التام عن وجه الحقيقة الغائب، والملتبس.

واستطراداً؛ لايجدي هنا الإعتداد بنسبية حقيقة ما، أو اعتقاد ما، أو خُلق ما، لما لم تكن هذه النسبوية المزعومة إلا مزيد تمزيق لمسيرتنا الحضارية، ومزيد تشظٍ لأركان الوجود البشري، ولايحتاج الأمر إلى كثير سبر، لمعرفة أن تمييع الحقيقة، لايزيد الحضارة أو أنظمتها إلا هشاشة، وقابلية سريعة للسقوط، واستغلالا عنيفا للقوة والهيمنة، وسحقِ الطبقات البشرية الضعيفة والمتعبة، وصيرورةُ التاريخ، والواقع الآني، بل واستشراف الواقع المستقبلي، يقود إلى هذا الإستنتاج البديهي، والبسيط.

يبني ديننا الحنيف هذا البناء المحكم، معتمدا دوما على أصل توحيدي متين، تتفرع منه أفرع المنظومات الأخلاقية الإسلامية، وكما مر من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه، مستندا على قاعدة قرآنية سليمة عظمى في مخاطبة الفطرة البشرية الإنسانية، الواحدة في حلمها، وتطلعاتها، قلقها، مخاوفها، ورغبتها في كشف الأستار والحُجُب، للعثور على إجابات تشفي غليل الألم، والقلق، والخلط الأساطيري، لمنظومات الوجود، وللوصول إلى نتائج التعليل، وربط الغائيات والأهداف الكونية، واطرادات الوجود المنتشرة على مدىً هائل من الدقائق الذرية، إلى المتعملِقاتِ المجرية، لمعرفة من نحن؟ وإلى أين؟ ولماذا كل هذه الأشياء؟ ولماذا كل هذا التسامي الرفيع في الكائن البشري؟ في حقيقة الخلق، لا في حِراكية السير البشري، الذي يحمل فيما يحمل، الموجب والسالب، والسالب نفسه ليس إلا الوجه الآخر من القلق العظيم، المختبيء، والخائف.

من ثم؛ يتم الربط بين وجودنا المستقبلي القادم، أو ماوراء المستقبل؛ دوما وعبر نصوص وقواعد القرآن الكريم، ثم عبر نصوص وقواعد السنة النبوية، بمنظومة الإسلام

الإعتقادية الكبرى والقاطعة: التوحيد، التي تنبني عليها وكما سلف البحث، منظومته الأخلاقية، التي هي فرع أصيل من الإيمان بالله، إذ لاقيمة في دين الحق جل وعلا، من جهة التخصيص الإيماني الغائي، بالأخلاق المجردة، التي قد تصبح وسيلة للهيمنة، والتسلط، واستلاب التجربة البشرية، مع وافر الإعتداد بعمومية المعطى الإنساني، وفق مقتضى التقرير القرآني لقاعدةِ الفطرة الإنسانية.

ووفق هذين الخطين الملتحمين، والذي أحدهما، وهو التوحيد، مادة الآخر وروحه، يقرر الإسلام التقويم الحقيقي للتاريخ البشري الماضي، ويفعل كذلك الحراك الآني للواقع المعاصر، ويربط التطلع المستقبلي الإنساني، سواء على مضمار المستقبل القريب، أو المستقبل الأبعد، أو المستقبل المطلق: الدار الآخرة، مكوناً منظومةً مفاهيمية متكاملة، ثابتة الأركانِ، عتيدة الأعمدةِ، تجلي أول ما تجلي، شغف الرحلة البشرية، وعلاج القلق المؤلم، الذي قد يأخذ بقلوبنا أبان هذه الرحلة، الملىء بالآلام، والتحديات الهائلة، بل والتحديات الإستثنائية لبعض الأفرادِ من الجنس البشري، وليست هذه إلا رموزَ الوجود، لتفعيل التفكير العميق حول الغايةِ، والهدفِ، وحقيقةِ النهايات والمآلات.

الفصل الواحد والثلاثون

العلل الوجودية المستقبلية وإطارات القرآن الكبرى

مر في الفصلِ الثلاثين، كيف أن منهجية القرآن الكريم تفعل الربط بين حقيقة المستقبل، وحقيقة التوحيد؛ لما كان هذا الأخيرُ المحورَ الدوراني لمنظومة الحِراك البشري، الذي تطرحه أنظمة القرآن الكريم، وكِلا المنظومتين؛ الإعتقادية والأخلاقية، تؤصلان للمعطيات العامة، الكلية، والوجودية، لعملية الحِراك الحضاري، ودفوعات التطور البشري، وفق المنهج الذي يطرحه كتاب الله جل وعلا.

وهذا المنهج القرآني الكريم؛ مضى من سالف البحث توثيقه لحركة الإنسان على هذه الأرض، وفق معطيات محددة، تقوّم السلوك والعقيدة، وترتفع بالنفس الإنسانية نحو مدارج عليا، لا من جهة مجردةٍ خالية عن الهدفية والغائية، كما هي حال بعض الفلسفات الإشراقية، التي تحاول بناء النسيج البشري، وغزلِ خيوط الوجود الإنساني، وفق تطلعات مجردة، منفصلة عن أسئلة الكون الكبرى، التي كانت مطروحة طوال سير خط الحضارة البشرية.

عليه؛ وكما مضى التقريرُ، وسياقاتُ الأدلة؛ من كتاب الله جل وعلا، ثم من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، في عموم التوكيدات على أنظمة الإسلام العقدية والأخلاقية، ثم في خصوص التطلع المستقبلي، أنه بناء كله يقوم على تفعيل التصور التوحيدي للكون، الذي تنبجس منه كافة المنظومات الأخرى، تشريعية، أو أخلاقية، ليصير البناء محكما، قويا، قال تعالى: **كتاب أحكمت آيته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**[135]، إذ لامجال في طرح

[135] هود 1.

الإسلام الحضاري والتصوراتي، لعبثيات التصورات، أو فوضى التعاطي الأخلاقي النسبوي؛ والذي ليس إلا إنكسارنا الأخلاقي الحزين، والقلِق، والمتلمِس لحرارة حلمهِ الذائب المرتجى، أو لأي معطى حضاري آخر، يستلب منا القدرة على التصور الصحيح، وفق مناطات كتاب الحق جل وعلا، ثم سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وفي الحقيقة، التقرير هنا بسيط المنزع، سهل الأردان، سلِس القياد، فالحياة الإنسانية مكرمة، نفيسة، وغالية، وفق كليات الكتاب والسنة، ومن ثم، فلا يمكن إضاعة الوقت البشري في متاهات، تتربص فيها وحوش خفية بضمير الإنسانية الباحث عن الحقيقة، ولايمكن القول؛ على طرح البعض، أن البشرية تعاطت مع النسبي لفترات طويلة من تاريخها، وتعايشت مع ظلامٍ من الغيوم من الحقائق، قانعة بذلك، وراضية بهذا القدر من الحلم والتطلع البشري، إذ يصبح الأمر في هذه لحال أقرب إلى إخلادنا إلى حالة من الإستسلام، بدعوى فيها الكثير من التشظي، وافتقاد القدرة على التحكم بمستقبلنا، أو بتصوراتنا عن حقيقة الكون والوجود، بما فيه نحن بالطبع.

لكن، وعلى كافة الأبعاد الحضارية، تلك التي تتصل برؤيتنا الإعتقادية، أو برؤيتنا الأخلاقية، والتي تحيط الأطر العامة، وتحددُ خط السير الحضاري، مكونة المباديء الكلية للوجدان البشري، تأتي تقريرات القرآن الكريم واضحة في تحديد تلك الأبنية الكبرى، والأنظمة الباذخة التي يجب أن تقوم عليها طبيعة الحقيقة البشرية، في كل آمالها، وتطلعاتها، والترياق الذي يعالج طبيعة المتاهة القلقة التي يمكن أن نعلق فيها، متى ما تشعبت الخيوط المتلبسة، وانفرطت طبيعة الأداء الفكري، والعقلي، وتحولت الإستدلالات إلى غابة مظلمة، لايكاد الإنسان يجد فيها غصناً أخضر يانعاً، يضيء الأرض الجرداء المتكلفة، التي زرعنا فيها بمفاهيم ملتبسة، شجرة العقل البشري.

وعلى ذات الخط، كان الأفق المستقبلي الذي يحدده القرآن الكريم، مُناطاً بمنظومته الإعتقادية، والأخلاقية؛ التي تحدد سياقات الوجود الحضاري البشري، وطبيعة التفاعل، وحركة نشاطنا السياسي، والاقتصادي، والإجتماعي، والعلمي، ومعادلة التعاطي العقلي مع المعطى المعلوماتي الضخم لكوننا الممتد، والمدهش، والرائع حقا، رغم أن الوجود البشري لايكاد يحتل إلا حيزا صغيرا من طرف الذراع الخارجي لمجرتنا؛ درب التبانة، على مبعدةِ حوالي 27 ألفَ سنةٍ ضوئية، عن المركز البؤرِي للمجرة، لكن في آخر الأمر؛ يبقى الوجود البشري عظيما بعطائه، لا بحجمهِ الفيزيائي.

أقول: يتعامل القرآن الكريم مع الوجود القادم؛ المستقبل، وفق ذات الأنظمة التي يتعاطى بها مع التاريخ، والحاضر، ولعِلةٍ منهجية واضحة دوما، هي أن وحِدة الحلم، والتطلع، والرغبة العارمة في الكشف، وبحثنا عن الأسئلة؛ باقية، ولن تختفي مادامت البشرية تعمر هذا الجزء من الكون، ومادامت ثمة آفاق مستقبلية قادمة، ومع بقاء تلك الأسئلةِ، والشغفِ، سيظلُ المنهج القرآني في التعاطي؛ بعد كل هذه الرحلة البشرية طوال خط الحضارة، ظاهراً بيانياً، وثابتاً متمرساً، في موازنةِ الضمير والعقل الإنساني، ولن ينفك المستقبل؛ وفق هذه التقعيداتِ القرآنية، عن الرغبةِ في توقع العِلل الكبرى لوجودنا.

الفصل الثاني والثلاثون

المستقبل مابين النزعة المادية ونظم الإسلام الكبرى

يلاحِظ المتتبع لسياقاتِ الدراساتِ المستقبلية، أو في طرفٍ منها، محاولة حصر التطلع المستقبلي في دائرة التطور المادي، أو التقني، أو تلك التطلعات التي تلامس أكثر ما تلامس المعطيات العلمية الصرفة، المختصة بالحياة وأدواتها، وتلك المعينات العمرانية، والحضارية، التي هي من ضمن أسباب العيش الكريم.

بالقطع، هذا من جملة الحلم البشري، الذي لايزال واسع الأنحاء، ممتد الزوايا، فالكشوف المستقبلية المترقبة؛ على فرضية حصولها، في أبواب العلم التقني البحت؛ لا المذهب التأويلي النظري، يمكن أن تكون من جملة الأدوات الحضارية التي تسهل طريق البشر على هذا الكوكب، وربما حتى على كواكب أخرى، لو كان ذلك ضمن الإمكان البشري.

والقرآن الكريم، يضع وكما سبق البحث، إطاره العام للمحددات الأوليةِ الكليةِ لوجودنا، منطلقاً من عقيدة متينة، ومركزة، تتفرع منها منظوماته الأخرى، القيمية والأخلاقية، ماديا، كل الإحتمالات مفتوحة، وكل الإبداع البشري متاحُ المصاريع، والغايات، لكن في ذات الوقت ليس هو غاية كليةً، أو هدفاً أسمى، وسواء كانت التجربة البشرية على هذا الكوكب؛ مستقبلا، أو على كوكب آخر؛ مثلا، ضمن مساحة العشرة بالمائة فقط القابلة للحياة من مساحة مجرتنا الطريق اللبني، البالغ قطرها زهاء مائة ألف سنة ضوئية، سواء كان هذا أو ذاك، في آخر الأمر، تبقى القضايا الكليةُ الوجوديةُ القرآنية، واحدة.

يفعّل كتاب الحق جل وعلا ذلك التطور الإعتقادي والأخلاقي، القائم كله كما سبق على قاعدة إعتقادية، تحقق مضمون الكون، ووجودنا فيه، والغائية الهدفية للحِراك البشري، سواء على سطح هذا الكوكب، أو، مع احتمالاتِ الإمكان البشري، على كواكبَ أخرى، ضمن الجزء القابل للحياة فيه من مجرتنا الطريق اللبني، المحدد ما بين حوالي 30.000 إلى 20.000 سنة ضوئية، من المركز البؤرِي للمجرة اللبنية، استئناساً مع معطيات الإحتمالاتِ العلمية القائمة.

أقول: يفعّل القرآن الكريم تلك المنظومة المتسقة، باعتبار خطابها للجهد البشري، وتوقعات الفكر الإنساني، وقلق العقل البشري كذلك، فهي تلك الطبيعة المتلازمة لوجودنا، ولضميرنا، وللحركة الدورانية لمقتضى الحياة التي نعيشها، فهذه الطبيعة القلقة المتطلعة، وهذه السؤلات المنفتحة والمتوجسة، وهذه الأحلام والمخاوف، كامنة في أعماقنا، ولايبعد القول أنها كامنة حتى في المعطى المعلوماتي للكونِ المرصودِ نفسه، ولو ذلك الجزء الذي نعرف عنه ما أمكن حسب وسعنا العلمي والتقني، وتبعا لكل هذا التسلسل في الحقائق، في الحقيقة لن ننفك عن طلب حقيقتنا يوما ما، وفق تقرير القرآن الكريم، ثم نهايةً وفق حلّ الرمز الكوني، وفق دلالاتِ القرآن الكريم.

يضع كتاب الله جل وعلا إذن ذلك المقتضى الكلي لحركة الوجود، وطبيعة السؤال البشري، معطيا إيانا فكّ الشفرة الكونية لأنفسنا، أو لخاصية حركة الموجودات، وهي تلك المتلازمةُ الباقية مابقيَ الكون الممتد، ليكوّن ذلك المقتضى الثابت التام تحت كل حالة أو مرحلة من مراحل التاريخ البشري، كنا على متن هذا الكوكب، أو على متن شيء ما، يحملنا نحو عمق كوني آخر.

عليه، ليس التطور المادي المستقبلي وحده هو القصد في محاولة الكشف عن تجليات المستقبل البشري، هو، وفق معطيات القرآن الكريم، وحركة العمران والنسق الحضاري،

جزءٌ من تكوين المستقبل الإنساني، ولم تكن الحضارة يوما مادة منفردة تدور حول حاجياتنا المحسوسة فحسب، بل القلق من اللامحسوس كان دوما هاجسا ملازما، وبالمقابل، لايجدي فيه التعامل النسبي، الذي لا يثير إلا مزيداً من غبار القلق، وعواصف التيه، بقدر ما يجدي فيه؛ تبعا لمنهج كتاب الحق جل وعلا، التمييز التام، والتحقيق المطلق، لأن القضية البشرية قضية كبرى، فمن ثم تتبعها الإستدلالات الكبرى، والتحقق الأكبر، اليقيني، والبحت.

لكنَّ الشغف البشري بمادية المعطى الحضاري؛ في الفنون، والآداب، والأدوات، والعلوم، ووسائل النقل، ووسائل الراحة، واللهو، والترفيه، هو جزءٌ أكيد من طبع التطلع البشري، لكنه ليس كل شيء، لكنه من جملة وجودنا وحياتنا، ونشاطنا البشري الآخاذ والمدهش، والذي يتم عليه، ويكمل، ويحقق، هو تلك المعطيات الكلية الكبرى لكتاب الله جل وعلا، من تحديد التصور الإعتقادي، ثم الأخلاقي، لنا، ولكوننا.

الفصل الثالث والثلاثون

المستقبل مابين الواقعية الحكيمة والإفراط الشاعري العلمي

من الجيد، برأيي، أن يبقى التطلع المستقبلي واقعيا، وبالطبع لاتعني الواقعية محاولة حجزِ الحلم، أو محاولة التحديد لمقتضى العقل الإبداعي البشري، لكن الشاعرية المفرطة قد تؤدي بنا إلى عدم التقدير الصحيح للحقائق كما ينبغي، أو قد تحتل مكاناً ما من منظومة التفكير عندنا، من الأقرب أن يفعّل لحل المشاكل الآنية الحالية على الكوكب، في حالة الرغبة الواعية لصنع المستقبل بثبات، ومنهجيةٍ واضحة.

ثمة إشكاليات اليوم، على مضامير البيئة، وحلول الطاقة، وأزمات سياسية مركبة وعميقة، تحتاج إلى الكثير من التكاتف العالمي، لتحرير الحلول الخلاقة، ووضع منهجية مركزة تتعامل مع المشكِل بصورة واعية، ليكون المستقبل، أو تكون الرحلة نحو المستقبل ثابتة الأركان، متينة البُنى[136].

ولايعني هذا بالطبع الإغراق في الواقعية المفرطة كذلك، لكن الإتجاه السليم في التفكير، أن مآلات المستقبل لن تكون إلا بعد إصلاح قاعدة الحاضر، التي سوف ننطلق منها نحو الغد، فثمة واقعية عقلانية حكيمة، وثمة كذلك خيالا مستقبليا حكيما، وبين الدرجتين يكون الوضع الصحيح لمعادلة المستقبل.

ومن دون الحلولِ المتكافئة، والمحكمة على إشكاليات الحاضر المعاصر، من الأقرب أن يكون المستقبل أعرجا أعورا، ولايمكن الانفصام عن مشاكل مكان في العالم، ومحاولة البناء على هيكل المستقبل في مكان آخر، نظريا هذا يبدو ممكنا، وربما هو واقع الحال في

[136] جاكوب فون أويكسيكول، تصور لمستقبل البشرية صـ24، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 2007.

بقاع مختلفة من العالم، واقعيا وعلى الأرض، تفرض معادلات مجريات الأحداث ظلالها بقوة صارمة، وإشكالية ما في بقعة في الكوكب في مكانٍ ما، تؤثر على بقعة أخرى في الكوكب في مكانٍ آخر، وتقاطعات السياسة، والإقتصاد، والمحاور الدولية، وأنماط الطاقة، وأبجديات الجغرافية والنقل، وخطوط الموارد والمصادر الطبيعية للحياة؛ كل هذه، وغيرها من المشتركاتِ الإنسانية، تجعل الإنفراد بتخطيط مستقبل الكوكب، أياً كان هذا المنفرِد، أقول: تجعل هذا الإنفراد أمرا مستحيلا، في الأغلب الأعم، وعلى أرجح الإحتمالات عندي.

نعم؛ قد تظهر سطور ما على صفحة المستقبل الآن، وكما هو حاصل، لكن إكمال هذه السطور، ووضع الحروف بينة الدلالة على كتاب المستقبل، يحتاج أكثر ما يحتاج إلى التكاتف الدولي، والإيمان العميق بوحِدة الكوكب، بل ووحِدة المصير، بل وأشد عمقا وإيغالا وحِدة النفس البشرية؛ المتحدة في أحلامها، وتطلعاتها، قال عَز من قائل: وهو **الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون**[137]، هذه الوحدةُ الإنسانية النبيلة، التي حدد كتاب الحق جل وعلا طبيعتها، ورونقها، ووجودها، ليست إلا الترابط البشري الذي لايمكن لعضو منه الإنفراد بفصل ما من فصول كتاب البشرية الأكبر؛ كتابة أو تحريرا، إلا بالتعاون الإنساني الكلي المثمر مع باقي أفرادِ الأسرة، لأن المصير متحد، ولأن الأصلَ متحد.

بعضُ الإغراقِ في الخيالية العلمية؛ كما في بعض الدراساتِ المعاصرة[138]، برأيي، بخصوص المستقبل البشري، ينافي القدرة الحقيقية والعملية على التفاعل العقلاني مع إشكاليات عالمنا اليوم، فالبناء المستقبلي يحتاج منا قبل كل شيء حل الوضع المعقد اليوم

[137] الأنعام 98.

[138] ميشيو كاكو، مستقبل البشرية: استصلاح المريخ والسفر بين النجوم والخلود ومصيرنا خارج الأرض صـ368، مركز المحروسة للنشر 2021.

على المستويات المتعددة من الحياة البشرية، وتحديات غاية في التركيب للوضع الحضاري، أو للحظةِ الحضارية التي ننتمي إليها من مسيرةِ وتاريخ الحلمِ، والتطلع البشري، وفق إيماننا التام بأن التعاون الشامل بيننا هو الشفرة التي يمكنها حل رموز المستقبل من معطيات الحاضر الآني، ولن تجدي التقوقعات المحلية، أو الإقليمية، أو على مستوى دولة منفردة مهما بلغت من القوة على سطح الكوكب؛ لن تجدي كل هذه المعادلات المنفردة في القدرة على تخصيص صيغة ما للمستقبل الذي نريد أن نراه مشرقا، ببعضِ تطلعاتِ حلمنا البشري، المستمرِ والمتجدد، وبرأيي؛ وقبل محاولات الهروب إلى السماء، من الأفضل أن نتعلم كيف نتعايش على الأض، وبدل البحث عن كواكب أخرى؛ على ما ترى دوائر علمية مفرطة في شاعريتها المستقبلية؛ حسبما أرى، مازال في هذا الكوكب المدهش بقية من قدرات خلاقة لم تستغل بعد، قال تعالى: **ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**[139]، ليظل ثمة أملا مبهجا في ثنايا هذا الكوكب الجميل والمدهش؛ متلألئا ومفعما ببقية تطلعنا البشري، وكما سبق، لايعني هذا الإغراق في الواقعية الجافة، لكن الواقع العملياتي والأرضي، في هذه اللحظة من تاريخنا، يحدد التعامل المنهجي لوضع الحلول، وتجاوز الإشكاليات، منطلقين من وحدة النوع البشري في حلمه وآماله، ربما حينها نتجاوز هذه التحديات، لننطلق في آفاق هذه الأكوان الكبرى، الممتدةِ، العملاقةِ، قال تعالى: **وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**[140].

---

[139] الأعراف 24.

[140] الجاثية 13.

الخاتمة

ستظل الرحلةُ مستمرة، ورغم كل ما اكتنفنا من تحديات، يبدو في الأغلب أن الرغبة في التشكيلِ الحقيقي لمعرفة من نحن، ظلت سمة ملازمة لنا طوال تاريخنا، ولايعني هذا أن التجربة البشرية كانت سمتاً خالياً من الخطأ، أو كنا كائناتٍ مثالية، بالطبع لا، بل يبدو أكثر أن أخطائنا تعلمنا الكثير من الدروس طوال تلك الحقب؛ الطويلةِ بالنسبة لنا، القصيرةِ بالنسبة إلى عمر الكونِ، من التجربةِ البشرية.

أما سؤال الهويةِ الإنسانية ومصيرها، والسبر الدائم لإكتشاف عِلة هذا الوجود البشري، فظل دوما بامتياز هو الزناد المشتعل الذي يقدح في آمالنا الراغبة في المعرفة، والمتحرقة إلى العلم، سؤال الوجودِ، والمصيرِ، ومحاولة كشفِ ولو حجابٍ شفيف من تلك الحُجُب التي تحيط بالوجود البشري، وكعادة القرآن الكريم، ومعانيهِ الواسعة الممتدة، لايبعد أن تلك الإشارات المصيرية، والإستكشافية، هي جزء ما من مدلول قوله تعالى: **فأعلم أنه لا إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم**[141]، فهذا المكمن العلمي للسياق البشري؛ ظل جوهرة ناصعة في حقيقتها وفِطرتها، وربما كانت صيرورة الحضارات الإنسانية تحاول دوما إزاحة ما علق بها من غبار لتصبح أكثر صفاء ولمعانا، ولتصبح أكثر تعبيرا عن التجربة التي نخوضها، في الكشف العلمي، والمعرفي، والإدراكي، للحقائق الكبرى المهمة في عالمنا، وفي طبيعة وجودنا، حتى نكون أكثر طمأنينة وثباتا، وإلا اجتاحنا القلق كما الحال في عصرنا اليوم، والذي هو رغم كل شيء، تجربة بشرية نعتز نحن من ننتمي إلى هذه اللحظة من المسيرة البشرية؛ بالإنتماء إليها، لكن لم تكن الدلالات الكلية الكبرى من كتاب الله جل وعلا، ثم من سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ الكاشفةِ

---

[141] محمد 19.

عن معاني كتاب الله جل وعلا، والرافعةِ للمعاني من سُوح دلالاته الكبرى واللامنتهية، لم تكن الدلالات إلى معرفة بأننا كائنات مقصرة، وترتكب الخطأ، وأنه يجب التعلم من أخطائنا، كما في الأثر النقلي: لاحليم إلا ذو عثرة، ولاحكيم إلا ذو تجربة[142]، لم تكن هذه المعرفة الدلالية بخافية، ليصبح الخطأ والخلل الذي نقع فيه مكنسة كهربائية! تزيح الغبارَ المتراكم عن سطح وجودنا الصافي والفطري.

كانت التساؤلات، وستظل، كثيرة جدا، ولاتبدو المحفزات المعلوماتية الكونية، إلا محفزة للمزيد من الأسئلة، وللمزيدِ من مساحاتٍ واسعة من جهلنا، حينها نلجأ بالطبع إلى التأويل، ومحاولة التحرير للمعطى الكوني المعلوماتي، ويبدو أننا قد نقع في الخلل التصوراتي والمفاهيمي، لحقيقة تلك الدلالاتِ الكونيةِ الكبرى، والمدهشةِ بالطبع، ومن ذلك الخطأ التأويلاتي والتفسيري، تأتي العقيدة الملتبسة عن الكون، ونحن، وطبيعة وجودنا فيه، وانحراف العقل ليصبح مزرعة كبرى للأساطير، والمنظومات الغامضة، والنفي الأجوف، والإنغلاق داخل صندوقٍ حديديّ قاسٍ، صنعهُ العقل نفسه، أو بصورة أدق، تصورنا نحن عن ماهيةِ العقل، لا في حقيقةِ الأمر.

وهناك إتجاهٌ علمي معاصر إلى الاعتدادِ الشديد بتلك الآفاق التحررية من العقل، متحررة من سطوة البرهنةِ المادية القاصرة، والواقفة عند حدود المحسوسِ، لا آفاق المعقولِ الحقيقي والرشيد، ومع هذا الجفاف في الإستدلالات، والرِقّ البياناتي المحتَبَسِ في سجنٍ بارد ثقيل، يقرر القرآن الكريم، تلك الحدود بين نوعيّ العالم، والوجود، والكون: الشهادة والغيب، وضمن الوحدة القرآنية الكبرى للمفاهيم والتصورات، تصبح الشهادة سلماً أولياً للغيب، ويصبح الغيب تفسيراً نهائياً لمعطى عالم الشهادة، وهو، وكما سبق، ما أصبحت

[142] الترمذي، السنن 2033، عن أبي سعيد.

تميل إليه الإتجاهات الفكرية العلمية المعاصرة، في أطيافٍ واسعة منها، ضمن تلك المحاولات لتحرير العقل من المفهوم الذي صنعناه نحن؛ حداثتنا المعاصرة[143].

يبني القرآن الكريم وعبر متونٍ واسعة من آياته الكريمات، بناء توحيديا خالصا، دقيقا، كليا، وشاملا، عبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث القدسي: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه[144]، كاشفاً صلوات ربي وسلامه عليه، عن تلك القاعدة العظمى، والنهائية، والأبدية، في الأفق القرآني المعرفي، الإستدلالي، والتصوراتي: قاعدةِ التوحيد المطلق.

ولم تكن الفطرة يوماً بغريبةٍ عن هذا التصور التوحيدي، بل هو ثابت وراسخ في الضمير الإنساني طوال رحلة الحضارة؛ يعرفه المطلع، والمستقصي للرحلة والتجربة البشرية، لكن؛ ووفقَ تقاطعاتٍ خاصة، ووسط غابة ملتبسة من الأفكار والمفاهيم، وردود الفعل، ومحاولة إضافة نزعات تفسيرية لوجودنا، تلتبس دوما بقصور التأويل في دلائل العقل البشري، كان يحصل ذلك الخللُ في خدشِ ثوب التوحيد الناصع البياض، في الفطرة الإنسانية السوية.

وقد مر حديث النبي صلى الله عليه وسلم؛ القدسي، في الفصل السادس والعشرين: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم. لكن، يحصل الخلط، وتتقاطع السياسة بالمصلحة الدينية الزائفة، وتسيطر قوى مختلفة عن طبيعة حلمنا البشري، ليكون المزيج الخارج مشوها، مبتورا، نفعيا خالصا، أما على درب الأنبياء الكرام صلوات ربي وسلامه عليهم، فتأتي المعالجة للمشكل الحضاري وفق تحقيق حقيقة التوحيد بالأصل، لتقوم عليه أنظمةُ وبُنى الحضارة الإنسانية، وليشكل النظام التوحيدي، أصلا راسخا للبناء الحضاري الذي يفعّله

---

[143] ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي صـ457، العبيكان للنشر 2010. وسائر بصمه، بنية الإكتشاف العلمي صـ59، دار الكتب العلمية 2016. وخالد قطب، أنسنة العلم صـ67، نيوبوك للنشر 2018.

[144] مسلم، الصحيح 2958، عن أبي هريرة.

القرآن الكريم، ويدعو إليه بصورة ملحة، حاسمة، قوية، عبر متون الفضاء المعرفي القرآني، لتصبح دعوة التوحيد، جوهر القرآن الكريم، ولبه الأصفى، وزهرته اليانعة المنيرة، والمركزيةَ التي تدور حولها منظومةُ القيم، والمعطيات القرآنية.

عليه، وكما مر في الفصول السابقة، يحصل الإستنتاج التام في تعريف البؤرة القرآنيةِ المعرفيةِ المطلقة: دعوة التوحيد، والتي يقرر القرآن الكريم، ثم نصوص سنة نبينا صلى الله عليه وسلم، أنها تلك المنظومة الفطرية الإنسانية الصافية، العميقة، في جوهر النفس البشرية، لكن وعبر مسيرة الحضارة، وطرق التلمس والسبرِ البشري، وخصيصةِ الشغف الإنساني، للبحثِ، وكشف أستار العالم، والوجود، والكون، تغيم غمامات داكنة، رمادية، على تلك الجوهرة التوحيدية الفطرية، ولتتشظى أمامنا المفاهيم، وتتحطم أمام أعيننا سلامة الرؤيا، وعقلانيتها، وتحقيقها المطلق والرشيد.

فمن ثم، يطرح القرآن الكريم، مفهوم التكميل، والتتميم، الذي يبني على الوعاء البشري الصافي، والمنسي، ذلك الوعاء الذي يُعمَم على التجربة البشرية، باختلاف ثقافاتها، واعتقاداتها، وميراثها الحضاري، في محاولة لخلقِ الزناد التام، والكامل، نحو غاية القرآن الكريم العظمى والمطلقة؛ سبرِ التوحيد داخل عمق النفوسِ الإنسانية قاطبة.

وليس الأمر في كتاب الله جل وعلا، مجرد محاولة للتحقيق التجريدي، أو خلق مفهومٍ منفصم عن الدلالة الواقعية، والكونية، والمعطيات الوجودية، للأثرِ المعلوماتي للكون من حولنا، بالطبع لا، لكن القرآن الكريم، يناقش دلالة المعلومات الكونية، ثم أداتها التفسيرية إلى إحتمالات الشركِ، والعدمِ، والتوحيدِ، قال تعالى: **أم جعلوا لله شركاء**

خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم[145]، وقال تعالى: **أم خُلِقوا من غير شيء أم هم الخالقون**[146]، وقال تعالى: قل **الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار**[147].

يفعّل القرآن الكريم النظام التوحيدي بناء على سردِ الأدلة، وبيان الإحتمالات، ومناقشة الفرضيات الكونية، المتصلة بفرز إحتمالات الوجود، ومصيرنا، وحالةِ البشرية، ووضع كل المعطى الإستدلالي، والمفاهيمي، تحت مختبر البراهين القرآنية، ليصل القرآن الكريم إلى تقرير التوحيد، حقيقةً مطلقة، موصولة بغائيةِ الكون، ومصيرِ البشر، وطبيعةِ وجودهم.

هذا، ولما كان الأمر ليس مجرد حقيقة مجردة في سماء التأويلاتِ العقلية، أو التحقيقاتِ الإستدلالية، يصبح للتوحيد حينها؛ وفق المعطى الدلالي للقرآن الكريم، أثرٌ وثمرة على طبيعة الحراك الحضاري، ومقتضى واقعي على مسيرة التجربة البشرية، ولايصبح فقط حينها مجرد تصور نظري للعالم، وتفسيرٍ لطبيعة المنظومات الكونية والمعلوماتية للوجود، بل مع التحقيق القرآني المتين، يصبح للتوحيد أيضا مقتضاه على واقع المجتمعات الإنسانية، في كافة أوجه النشاط البشري، السلوكي، والتربوي، والنفسي، ليصبح الظل وريفاً، مفعماً بالسكينة والإيمان.

وتأسيسا، تصبح منظومات الإسلام الأخلاقية على كافة الأصعدة، ومما سلف فيه البحث، وتقلابُ النظر، تصبح حينها، مرتبطة أشد الإرتباط بالمنظومة التوحيدية القرآنية، لتُبنى الأخلاق في البناء الإسلامي؛ على قاعدة صلبة وقوية، تقيها عثرات التردد البشري، والتحكم السياسي، والهيمنة الإقتصادية، والصراع النفسي الداخلي أو المجتمعي، لأن طبيعة الأخلاق حينها، أن تنطلق وتنبجس، نهراً رقراقاً فياضاً، ونبعاً وارفاً مزدهراً، من حديقة

---

[145] الرعد 16.

[146] الطور 35.

[147] الرعد 16.

التوحيد الكبرى، بكل خصائصه، وضوابطه، ومقتضاه السلوكي، والأخلاقي، والدفوعات المحددة لديناميكيةِ التفاعلِ والتشاركِ البشري، والتي يفعلها كتّاب الحق جل وعلا أيما تفعيل، معتداً بها دوما ضمن الدائرة الإنسانية الكبرى، دافعا بها دوما، وكما سبق البحث، نحو الدائرة الإيمانية الخصوصية، وفق مبدأ التكميل والتتميم القرآني، المفعِل لمقتضى الترقي للفطرةِ البشرية.

وفي الواقع المعاصر اليوم، تصبح الأخلاق النسبوية النفعية، أداة هائلة للكذب، والتخذيل، والاستلاب، والغش، وشراء المشاعرِ والأحاسيس، وممارسة الألاعيب الكبرى على ساحة الصراع الدولي، وروابطه الأخرى على الأذرع الثقافية والإجتماعية، السلوكية والعلمية، النفسية والوجدانية، لكن قاعدة الإسلام واضحة بجلاء، في ضم مقتضى السلوك الحضاري البشري، تحت مظلة التوحيد الأكبر، خروجاً من مناطِ الأخلاق وفعلها، وردود فعلها، عن الختلِ، والدجلِ، وشراءِ وبيع الذمم والمصائر، وفق مبدأ الرحمة الكوني الشاملِ لجميع البشر، قال تعالى: **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**[148]، وفي الحديث النبوي الشريف: يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة[149]، وقد سبق مقتضى خطبة حجة الوداع، عند خطابه صلوات ربي وسلامه عليه بخطاب بشري إنساني عمومي، في محاولةٍ، ولو على الحد الأدنى، لمقتضى الرحمة، في تفعيل الأخلاق وفق عقيدة الإيمان القرآنية الباذخة، ولو على الحد الأدنى كذلك في حفظ الكرامة الإنسانية، المعممةِ قرآنيا، على جميع أوجه النشاط البشري، تعاملاً من كتّاب الحق جل وعلا مع مجمل الاحتمالات السائقة لكرامة، وتقديسٍ، وتعظيمِ الحرمة البشرية، وفق كليات القرآن الكريم، كما سبق التأكيد وفق تنوع الدلالات، ووفق كذلك تقريرات السنة النبوية المطهرة، فمنها الحديث

[148] الأنبياء 107.

[149] الحاكم، المستدرك 99، عن أبي هريرة.

الشريف: لا قُدِسَت أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متَعتَع[150]، أي من غير أن يصيبه أذى يقلقه ويزعجه[151].

مجملُ الإستدلال، أن منظومةَ التوحيد في كتاب الحق جل وعلا، هي الضابط المنهجي والسلوكي، لمنظومة الأخلاق الإنسانية، ولو على كافة الأوجه الإحتمالية الحضارية، وفق مبدأ الرحمة القرآني الكلي، وباستطلاع الواقع الآني، بل والتاريخي، ولا يبعد على مستوى الإستشرافِ المستقبلي، أن ترى أن الأخلاق أصبحت ليست إلا صريعة المصلحة، ومصابة في مقتلٍ بفعل الشرهِ البشري، والسيطرة الإستراتيجية لمنظومة ما، أو دولة ما، وليصبح مصطلح الأخلاق الإنسانية المجردة، وللأسفِ حقوقُ الإنسان كذلك، ليستا إلا قربانا مقدسا، على مذبح تجربتنا البشرية الآنية.

وبانضمام المنظومتينِ التوحيدية والأخلاقية، يتكون ذلك التصور القرآني، لحقيقة التفاعل، والمشترك، والمستقبل البشري، وفق النمط، أو المنظومة الموحدة، التي تتكافأ على كِلا جناحي التوحيد والأخلاق، المستندة على نمط التوحيد القرآني، ليكون التطلع المستقبلي نفسه قائما على ذات القاعدة القرآنية الأصل، التوحيدُ الخالص، وثمرتها، السلوك الأخلاقي والبشري، المستند على الأصل التوحيدي.

وهذا لايعني نوعاً من السحب المفاهيمي فحسب، أو محاولة إضفاء صبغة غير محددة الملامح لطابع التفاعل البشري المستقبلي، ولطابع الأحلام الإنسانية المستقبلية، بقدر ماهو تقرير قرآني لحقيقة منهجية، تستند على الأصل وثماره المتفرعة، ليكون ظل الحضارة حينها وارفا، تفيء إليه الأنفس والعقول، وليكون طريق المستقبل نفسه محدد الملاح،

---

[150] ابن ماجه، السنن 2426، عن أبي سعيد.

[151] ابن حجر، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية 13\695، دار العاصمة 2000.

والأسس، استصحابا للماضي، وترصدا للواقع الآني، وبالرغبة في التجاوز المستقبلي، للإخفاقِ، والخلل التصوراتي، والمفاهيمي.

وسبق التقرير، أن العقلانية المستقبلية منزعٌ قرآني، من باب أسس القرآن وضوابطه، التي تخاطب الواقع، لنتطلع منه نحو المستقبل، لأن التطلع نحو الغد نفسه، لايكون إلا ثمرة دانية، منهجية، من الفعل الإيجابي والمسئول في اللحظة الآنية الحرجة، والحساسة، والتي تفرض التعامل الدقيق مع وقائع الحاضر، لنسج حلم المستقبل وفق عقلانية حكيمة، ورسم المسار تبعا لتخطيط متراكم، يستصحب الواقع، يقدر أحلام المستقبل، ويؤمن أن الحلول المستقبلية، لن تكون إلا بتجاوزِ إشكالياتنا الحاضرة، حتى لايكون خط السير أعرجَ، أبتر.

فمن ثَمّ، كان تنبيه القرآن الكريم في الحث على الفعل للغد، كما في الآية الكريمة التي سبق بيان بعضٍ من فقهها، قال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**[152]، وهي تربط أصول التوحيد، بمقتضى دلالتهِ الأخلاقية، ثم بمقتصى إنطلاقهِ المستقبلي، إطلاقا حرا مستنيرا، لايعيش في فانتازيا مستقبلية مغرقة، على ما تلمح بعض الدراسات المنشورة، وفي نفس الوقت لايغرق في واقعية جافة، تكبل التطلع البشري، الساعي دوما الى سباق مستقبلي حامٍ، ومطرد.

ووفق هذا الربط المحكم، بين الأصل التوحيدي وثمرته الأخلاقية السلوكية، والاعتداد بالحلم البشري المتطلع دوما إلى الأمام، بل والنظر إليه باعتباره قضية عالية الحساسية، لأنها تلامس البعد الدنيوي القريب، والبعد الأخروي الأبعد، وفق الآياتِ الثانياتِ من سورة النساء، التي سبق إيرادها في مطلع الفصل الثامن والعشرين، وبهذا المجموع الدلالي

[152] الحشر 17.

يكون تطلعنا المستقبلي، واقعيا، يدور حول مقتضيات الحلول لإشكاليات العصر، وفي نفس الوقت إستباقا إلى الأفق المستقبلي المفتوح، تبعا للحث القرآني المتقدِ، والمحفز.

وتبقى القضية القرآنية البشرية واحدة، سواء كان إنتقالنا طيفيا، على فرضياتٍ تأويلية لنظريةِ الأوتار الفائقة، في حالة الإمكان لتفكيكِ الكيان البشري، إلى كينونة تقترب من حافةِ اللامادة، ليعانق بعداً فوقياً، أو آخرَ، مبايناً، تفترضه البنيةُ النظريةُ الوترية، للسُموتِ الكونية، ولايبدو الإحتمال ممكنا، لتقاطعات موضوعية مشتبكة، أو حتى لو تقهقرنا إلى الخلف، في المستقبل، وفق قراءاتٍ تتخوف من إضطرابات كوكبية محتملة، وسواء كان مصيرنا الإستمرار على هذا الكوكب، الذي شهد ميلاد التجربة البشرية بكل ثرائها، أو قدر لنا السبق إلى كواكب أو أجرام أخرى، ثم بذرِ بذرةِ الحضارة الإنسانية فيها، لو كان هذا ممكنا، ووفق المعطيات العلمية الحالية، لايبدو هذا الإحتمال وارداً، تبعا لقراءةِ المساحات الكونية الهائلة، وطبيعة الأجرام والنجوم، والأعماق المذهلة والغامضة، التي يستحيل معها الوجود البشري، قريباً من قيمةٍ صفريةٍ تامة، ووفقاً للقراءاتِ الفيزيائية المعطاةِ على هامشِ النظرية النسبية، ففي حالة الرغبة الإنتقالية، والسفرِ بين هذه الأبعاد الهائلة لكوننا، على فرضية شغفنا الذي لا يكاد ينتهي، فإن هذا يستلزم بنا الإقتراب من الثابتِ النقلي الكوني المرصودِ حتى الآن: سرعة الضوء، التي تكافيء 300 ألف كلم في الثانية، وفي حالة الإقتراب من هذا الثابت الإنتقالي الكوني، في الحقيقةِ سنخرج من حالة الطبيعةِ البشرية، إلى حالةٍ أخرى طيفية أو شبحية، مما يشكل تحدياً هائلاً حتى لطبيعةِ وجودنا، وطبيعة المعطى المعلوماتي للحقيقة الإنسانية بأصلها.

ويظهر أن الأرض ستظل بيتنا الصغير السابح في فضاء لانكاد ندرك منه إلا القليل، ولتكون حينها بيتنا الذي نملؤه بالتسامح، والحب، والتفاهم، وفق الإطلاقات القرآنية، وكما مر كثيرا، ومن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم، والتي تمكّن للأطرِ الإنسانية الحضارية

المطلقة، مع تحفيزها دوما إلى الخصوصية الإيمانية الأعلى، وضعا للفطرة البشرية في حالتها الكمالية، التي رضيها الحق جل وعلا حين قال: **ورضيت لكم الإسلام دينا**[153]، منبهاً تبارك وتعالى، إلى عمومية الرحمة والمطلق الإنساني، الذي تفيض به آيات الكتاب العزيز؛ وفق التكريم الإطلاقي لعموم البشر، قال عَز مِن قائل: **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا**[154]، بل وشمولِ الرحمة؛ من حيث هي قيمة قرآنيةٌ وأخلاقية عظمى؛ لكل الأشياء، قال تعالى: **ورحمتي وسعت كل شيء**[155]. نسألهُ التوفيقَ، وهو أرحمُ الراحمين.

[153] المائدة 3.

[154] الإسراء 70.

[155] المائدة 45.

السيرة الذاتية

إيهاب عبدالعزيز | كاتب من السودان.

الأعمال الصادرة | يوميات على ضفاف النيل (رواية)، دار النفائس، بيروت 2011. قصة حب من بلاد كوش ومصر القديمة (رواية)، جداول للنشر، بيروت 2014. حكايات النيل والبحر (رواية)، منشورات ضفاف، بيروت 2014. الإسلام وحلم التطلع البشري (دراسة)، منشورات النيل، الخرطوم 2022.

البريد الألكتروني | e.a.75@outlook.com